كتب الفراشة - القِصص العالميّة

ديڤيد كوبرفيلد

القِصص العالميّة ٢١. ديڤيد كوبرفيلد

مكتبة لبنان ناشرون

كتب الفراشة

القِصص العالميّة ٢١. ديڤيد كوبرفيلد

رِواية «**ديڤيد كوبرفيلد**» عَمَل قَصصيّ مُتكامِل: فَالشَّخْصيّاتُ تَمتاز بِالواقِعيّة والحيَويّة، والأَحْداثُ تكتنِفُها الأَسْرار والمُغامَرات، والسَّرْدُ مُمتِع يَجْعل القارِئَ يَشعر أَنَّه في قَلْب ما يَجْري. أَمّا الأَبْعادُ فإنسانيّةٌ سامِية تَنْشُد سَعادَةَ الفَرْد وسَلامة أَخْلاقه وتَدْعو إلى صَلاح المُجتمَع وتَخْليصه مِن المساوِئ والشَّوائِب.

هٰذه الصِّفات الّتي تَجلَّت في كُلّ أَعْمال **تشارلز ديكنز** جَعلَتْه أَحَدَ أَعْلام الفَنّ القَصصيّ في الأَدَب الإنكليزيّ.



مكتبة لبنان ناشِرون



كتب الفراشة - القِصص العالميّة

ديڤيد كوپرفيلْد



تأليف: تشارلْز ديكنْز
ترجمة: زينه دياب
مُراجعة: هاني تابري



مكتبة لبنان ناشِرون

مَكتبَة لبُنان ناشِرُون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ٩٢٣٢-١١
بيروت - لبنان
وُكلاء ومُوزّعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٥
رقم الكتاب 01 C 196821
طُبِعَ في لبُنان



مقدّمة

كَتَبَ تشارلز ديكنز عَنْ رِوايَتِهِ «**ديڤيد كوپرفيلد**» أَنّها الأَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ بَيْنِ مُؤَلَّفاتِهِ كُلِّها. والواقِعُ أَنَّ هٰذِهِ الرِّوايَةَ تَحْمِلُ أَصْداءً مِنْ حَياتِهِ الشَّخْصِيَّةِ. فَقَدْ عانى ديڤيد كوپرفيلد، عَلى غِرارِ ديكنز، مِنْ مَشَقّاتٍ كَثيرَةٍ ناجمَةٍ عَنْ فَقْرِ أُسْرَتِهِ، كَما أُرْسِلَ في العاشِرَةِ لِلعَمَلِ في مَصْنَعٍ قاتِمٍ تُعَشِّشُ فيه الأَمْراضُ. بَيْدَ أَنَّهُ تَمَكَّنَ مِنَ الإِفْلاتِ مِنْ هٰذا الجَوِّ التَّعِسِ فحَصَلَ عَلى شَيْءٍ مِنَ العِلْمِ أَهَّلَهُ لِمُمارَسَةِ مِهْنَةِ الصَّحافَةِ كَديكنز نَفْسِهِ. وفي نِهايَةِ المَطافِ تَوَصَّلَ إلى الشُّهْرَةِ والثَّرْوَةِ بِصِفَتِهِ كاتِبًا رِوائِيًّا كَبيرًا مِثْلَ مُبْدِعِهِ. ومَعَ كُلِّ هٰذا، فَالرِّوايَةُ لَيْسَتْ سيرَةً ذاتِيَّةً لِديكنز إِنَّما هِيَ عَمَلٌ قَصَصِيٌّ مُتَكامِلٌ.

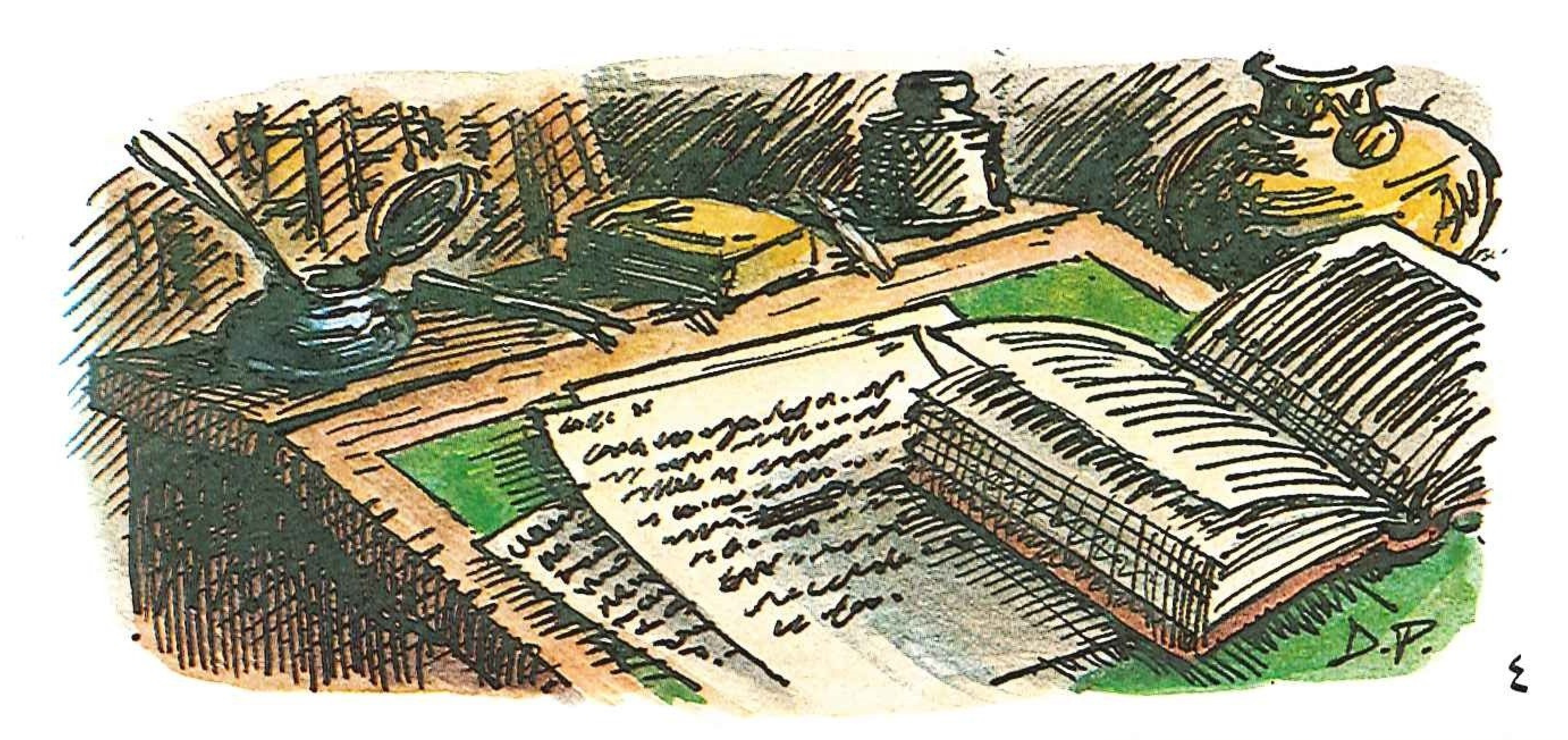
يَذْهَبُ ديڤيد بِرِفْقَةِ مُرَبِّيَتِهِ پيغوتي إلى مَدينَةِ يارْموث السّاحِلِيَّةِ، ويُمْضي أَجْمَلَ عُطْلَةٍ في أَيّامِ طُفولَتِهِ. وهٰذا المَكانُ يَخْتَلِفُ تَمامًا عَنِ المَدْرَسَةِ الدّاخِلِيَّةِ المُوحِشَةِ الَّتي أُرْسِلَ إِلَيْها ومُديرِها الظّالِمِ السَّيِّدِ كريكل، وعَنْ أَزِقَّةِ مِنْطَقَةِ بلاكفرايرز في لندن الَّتي تَغْزوها الجِرْذانُ والَّتي عَمِلَ فيها ديڤيد بَعْدَ تَرْكِهِ المَدْرَسَةَ، مُقابِلَ سِتَّةِ شِلِناتٍ في الأُسْبوعِ. لٰكِنَّ الأُمورَ أَخَذَتْ بِالتَّحَسُّنِ فيما بَعْدُ، إِذْ رَحَلَ ديڤيد إلى دوڤر وتَعَهَّدَتْهُ عَمَّتُهُ المُسِنَّةُ الغَريبَةُ الأَطْوارِ بِتْسي. كانَ لِبِتْسي تَأْثيرٌ عَميقٌ في حَياتِهِ، فَساعَدَتْهُ عَلى تَحْسينِ وَضْعِهِ حَتّى وَصَلَ بِعَمَلِهِ الدَّؤوبِ وتَفاؤلِهِ إلى بِناءِ الحَياةِ السَّعيدَةِ الَّتي يَسْتَحِقُّها.

وتَتَحابَكُ مَعَ قِصَّةِ هٰذا الشّابِّ الَّذي يَخْتَبِرُ أُمورَ الحَياةِ قِصَصُ عَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ الشَّخْصِيّاتِ الَّتي وَصَفَها ديكنز بِحَيَوِيَّةٍ فائِقَةٍ: ففي المَدْرَسَةِ وَجَدَ ديڤيد في ترادلز البَدينِ الصَّداقَةَ الَّتي تَدومُ مَدى الحَياةِ، فَهُوَ مِنَ الأَشْخاصِ الَّذينَ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِمْ. وفي المَدْرَسَةِ

أَيْضًا أُتيحَ لَهُ التَّعَرُّفُ إلى «مَعْبودِ الجَميعِ» المَدْعُوِّ ستيرْفورْث الّذي يَكْبُرُهُ سِنًّا. ولٰكِنْ سَرْعانَ ما صارَتْ صَداقَةُ ستيرْفورْث مَصْدَرَ خَطَرٍ، فَهٰذا الأَخيرُ كادَ يُسَبِّبُ لِديڤيد الكَوارِثَ بِتَصَرُّفاتِهِ الأَنانِيَّةِ الطّائِشَةِ. وفي الرِّوايَةِ أَيْضًا تَصْويرٌ لِعَذابِ الحُبِّ في قَلْبِ ديڤيد حَيْثُ كانَ الصِّراعُ قائِمًا بَيْنَ حَنينِهِ الرُّومَنْسِيِّ لِحُبِّهِ الأَوَّلِ لِإميلي، والحُبِّ الحَقيقِيِّ الّذي كانَ يُكِنُّهُ لِدورا الطّائِشَةِ الفَوْضَوِيَّةِ المِزاجِ، والحُبِّ المُكْتَمِلِ الّذي أَوْحَتْهُ إلَيْهِ أَغْنِس مَلاكُهُ الحَنونُ؛ إلّا أَنَّهُ حُبٌّ ساكِنٌ وخَجولٌ.

ومِنَ الشَّخْصِيّاتِ اللّافِتَةِ في الرِّوايَةِ السَّيِّدُ ميكوبر الّذي الْتَقى بِهِ ديڤيد لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وهُوَ في العاشِرَةِ، وظَهَرَ مِرارًا فيما بَعْدُ، وأوريّا هيپ الشِّرّيرُ الّذي يَعْمَلُ كاتِبًا عِنْدَ صَديقِ ديڤيد ومُرْشِدِهِ السَّيِّدِ وِكْفيلْد. والرَّجُلانِ مُتَناقِضانِ تَمامًا فَما لَبِثا أَنْ تَواجَها في صِراعٍ مَريرٍ، وتَوَقَّفَ على هٰذا الصِّراعِ مُسْتَقْبَلُ عَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ الشَّخْصِيّاتِ الأُخْرى، ومِنْ بَيْنِها ديڤيد بِالذّاتِ. فَالسَّيِّدُ ميكوبر يَفيضُ بِالحَيَوِيَّةِ وجَديرٌ بِالثِّقَةِ مَعَ أَنَّهُ يَبْدو بَعْضَ الأَحْيانِ طائِشًا وعَديمَ المَسْؤولِيَّةِ. أَمّا أُوريّا هيپ فَهُوَ بِالمُقابِلِ رَجُلٌ خَسيسٌ مُولَعٌ بِتَدْبيرِ المَكائِدِ ولا يُبالي إلّا بِمَنْفَعَتِهِ الذّاتِيَّةِ. وفي سِياقِ الرِّوايَةِ يَسْعى هيپ إلى تَدْميرِ السَّيِّدِ وِكْفيلْد، وهٰذا ما يَحْمِلُ الآخَرينَ جَميعًا على مُجابَهَتِهِ لِلحَيْلولَةِ دونَ وُصولِهِ إلى هَدَفِهِ.

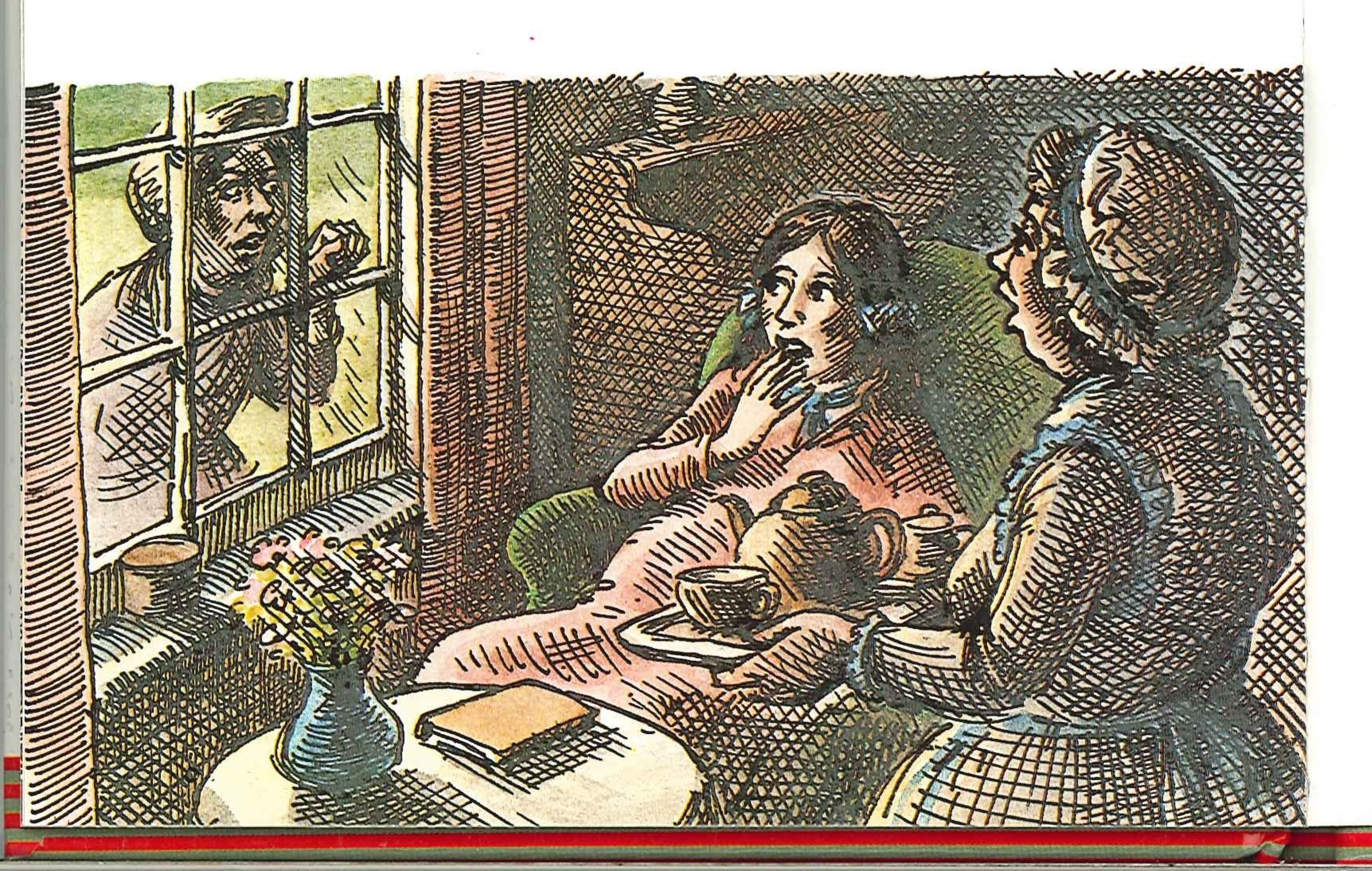
وتَمْتازُ «ديڤيد كوپرفيلْد» بِكُلِّ صِفاتِ الرِّوايَةِ العَظيمَةِ، مِنْ مُغامَراتٍ وكَوارِثَ وأَسْرارٍ وعَلاقاتٍ رُومَنْسِيَّةٍ. إلّا أَنَّ الصِّفَةَ الّتي خَلَّدَتْ ديكنز تَكْمُنُ في قُدْرَتِهِ على إقْناعِ القارِئِ بِواقِعِيَّةِ شَخْصِيّاتِهِ وجَعْلِهِ يَشْعُرُ وكَأَنَّهُ يَعيشُ الأَحْداثَ المَرْوِيَّةَ.



ديڤيد كوپرفيلْد

اِسْمي ديڤيد كوپرفيلْد، وقَدْ وُلِدْتُ في مُقاطَعَةِ سَفوك في جَنوبِيِّ شَرْقِيِّ إنكِلْترا، في مَطْلَعِ القَرْنِ التّاسِعَ عَشَرَ. تَرَمَّلَتْ والِدَتي قَبْلَ وِلادَتي بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ، وكانَتْ في عِزِّ صِباها وجَمالِها، ولَمْ يَبْقَ بِجانِبِها سِوى خادِمَتِها الوَفِيَّةِ پيغوتي.

يَوْمَ وِلادَتي فُوجِئَتْ أُمّي بِزِيارَةِ عَمَّةِ زَوْجِها المَرْحومِ، الآنِسَةِ بِتْسي. وكانَتْ قَدْ سَمِعَتْ عَنْها، غَيْرَ أَنَّها لَمْ تَلْتَقِ بِها مِنْ قَبْلُ. كانَتْ بِتْسي امْرَأَةً غَريبَةَ الأَطْوارِ. فَعِوَضًا عَنْ قَرْعِ البابِ، أَلْصَقَتْ أَنْفَها بِزُجاجِ النّافِذَةِ إلى أَنِ ابْيَضَّ وانْبَسَطَ، ثُمَّ دَخَلَتْ مِنْ دونِ اسْتِئْذانٍ. كانَتْ بِتْسي تَعْلَمُ أَنَّ أُمّي على وَشْكِ الوِلادَةِ، وأَعْرَبَتْ عَنِ اقْتِناعِها بِأَنَّ أُمّي سَتُرْزَقُ طِفْلَةً. فَقالَتْ لَها أُمّي إنَّ المَوْلودَ قَدْ يَكونُ صَبِيًّا، مِمّا أَثارَ غَضَبَها. عِنْدَما أَعْلَنَ الطَّبيبُ أَنَّ والِدَتي قَدْ أَنْجَبَتْ طِفْلًا لَمْ تَنْبِسْ بِتْسي بِبِنْتِ شَفَةٍ، بَلِ انْتَشَلَتْ قُبَّعَتَها ورَحَلَتْ مِنْ غَيْرِ عَوْدَةٍ. ولَمْ تَكُنْ أُمّي لِتَعْلَمَ أَنَّ بِتْسي هٰذِهِ كانَتْ سَتَلْعَبُ دَوْرًا أَساسِيًّا في حَياتي.



أَذْكُرُ أَوَّلَ ما أَذْكُرُ – مِنْ أَيّامِ طُفولَتي – خادِمَتَنا ومُرَبِّيَتي الرَّيّانَةَ ، پيغوتي ، ذاتَ الوَجْنَتَيْنِ الوَرْدِيَّتَيْنِ. وكُنّا نَعْتَبِرُها كَفَرْدٍ مِنْ أَفْرادِ العائِلَةِ ، وقَدْ أَحْبَبْتُها بِقَدْرِ ما أَحْبَبْتُ والِدَتي بِالذّاتِ.



ذاتَ يَوْمٍ وَصَلَتْ أُمّي إلى البَيْتِ بِرِفْقَةِ سَيِّدٍ حالِكِ الوَجْهِ، مُلْفِتٍ لِلنَّظَرِ. كَرِهْتُهُ كُرْهًا عَفْوِيًّا وحَدْسِيًّا. وبَدا لي أَنَّ پيغوتي حَمَلَتْ نَحْوَهُ الشُّعورَ نَفْسَهُ. في ذٰلِكَ المَساءِ، بَعْدَ أَنْ رَحَلَ الرَّجُلُ الدَّخيلُ ، وفيما كُنْتُ جالِسًا قُرْبَ المَوْقِدِ وقَدْ غَلَبَني النُّعاس ، أَيْقَظَني حَديثٌ حادٌّ يَجْري بَيْنَ أُمّي وپيغوتي .

سَمِعْتُ پيغوتي تَقولُ : «إنَّ السَّيِّدَ كوپرفيلْد لَمْ يَكُنْ لِيُحِبَّ رَجُلًا كَهٰذا.» فَأَجابَتْ أُمّي مُسْتاءَةً : «كَيْفَ تَجْرُئينَ عَلى أَنْ تَتَفَوَّهي بِهٰذا الكَلامِ يا پيغوتي ! إنّنا لَمْ نَتَّفِقْ عَلى شَيْءٍ بَعْدُ ، لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَمْنَعَ سَيِّدًا مُحْتَرَمًا مِنْ أَنْ يُعْجَبَ بي .» وأَجْهَشَتْ بِالبُكاءِ ، وأَرْدَفَتْ : «أَنْتِ تَتَّهِمينَني بِعَدَمِ الاكْتِراثِ بِوَلَدي الحَبيبِ. وتَقْسينَ عَلَيَّ ، يا پيغوتي .»

إثْرَ ذٰلِكَ سالَتْ دُموعُنا جَميعًا. فَصَعِدَتْ بي أُمّي إلى السَّريرِ وأَنا أَبْكي. وغَفَوْتُ والحُزْنُ يَغْمُرُني لِأَسْتَيْقِظَ وأَرَى أُمّي مُنْحَنِيَةً عَلَيَّ دامِعَةَ العَيْنَيْنِ.

خِلالَ الأَشْهُرِ التّالِيَةِ اعْتَدْتُ مُشاهَدَةَ الرَّجُلِ الحالِكِ الوَجْهِ آتِيًا لِزِيارَةِ أُمّي أَو لِمُرافَقَتِها خارِجًا. كانَ يُدْعَى السَّيِّدَ مُرْدْستون. وقَدْ نَفَرْتُ مِنْ صَرامَتِهِ البَغيضَةِ وافْتِقارِهِ إلى رُوحِ الدُّعابَةِ.

سَأَلَتْني پيغوتي ذاتَ يَوْمٍ إنْ كُنْتُ أَرْغَبُ في مُرافَقَتِها إلى يارْموث لِقَضاءِ حَوالَي أُسْبوعَيْنِ في مَنْزِلِ أَخيها عَلى شاطِئِ البَحْرِ. وأَضافَتْ : «إنَّ أَخي رَجُلٌ في مُنْتَهى اللُّطْفِ، فَضْلًا عَنْ أَنَّكَ سَتَمْلَأُ عَيْنَيْكَ مِنَ البَحْرِ والسُّفُنِ والبَواخِرِ وصَيّادِي الأَسْماكِ. وَلا تَنْسَ مُتْعَةَ اللَّعِبِ عَلى الشّاطِئِ مَعَ الفَتى هام والصَّغيرَةِ إميلي .»

وَقَدْ تَحَمَّسْتُ لِعُطْلَةٍ مِنْ هٰذا النَّوْعِ لٰكِنّي تَساءَلْتُ كَيْفَ سَنَتْرُكُ أُمّي وَحْدَها . فَهَتَفَتْ پيغوتي : «لا عَلَيْكَ ! لَنْ تَشْعُرَ أُمُّكَ بِالوَحْدَةِ. فَهِيَ سَتَذْهَبُ عِنْدَ السَّيِّدَةِ غرايپر.»

بَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ عانَقَتْني أُمّي بِشِدَّةٍ وهِيَ تُوَدِّعُني وبَكَيْنا ونَحْنُ عَلى هٰذِهِ الحالِ ، ثُمَّ جَلَسْتُ في مَكاني قُرْبَ پيغوتي في عَرَبَةِ النَّقْلِ. وحينَما انْطَلَقَتِ العَرَبَةُ لَمَحْتُ السَّيِّدَ مُرْدْستون يَصِلُ ويَتَّجِهُ نَحْوَ أُمّي وكَأَنَّهُ يُريدُ تَوْبيخَها عَلى بُكائِها عِنْدَ وَداعي.



وَصَلْنا إلى يارْموث في وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنَ المَساءِ. وبَدا لي المَكانُ بِأَسْرِهِ مُشْبَعًا بِالرُّطوبَةِ وكَأَنَّهُ مُنْبَسِطٌ مائِيٌّ كَبيرٌ، فَالبَحْرُ والنَّهْرُ والمَدينَةُ على مُسْتَوًى واحِدٍ. وعِنْدَما تَوَقَّفَتِ العَرَبَةُ أَمامَ الخانِ، جاءَ هام ابْنُ عَمِّ بيغوتي لِلِقائِنا، وكانَ شابًّا فارِعَ الطُّولِ. رَحَّبَ بِبيغوتي تَرْحيبًا حارًّا، وحَمَلَني على ظَهْرِهِ العَريضِ وتَأَبَّطَ الرِّزَمَ الصَّغيرَةَ الّتي احْتَوَتْ أَمْتِعَتَنا. قالَتْ لي بيغوتي إِنَّهُ يَتيمٌ، فَلَقَدْ ماتَ أَبوه غَرَقًا في البَحْرِ.

مَرَرْنا بِمَصانِعِ إِنْتاجِ الغازِ وأَحْواضِ بِناءِ السُّفُنِ ومَصاهِرِ الحَديدِ إلى أَنْ بَلَغْنا أَرْضًا رَمْلِيَّةً مُسَطَّحَةً تُؤَدّي إلى الشّاطِئِ. فَهَتَفَ هام: «ها هُوَ بَيْتُنا يا سَيِّدُ ديفي!»

نَظَرْتُ إلى شَتّى الجِهاتِ فَلَمْ أَرَ أَثَرًا لِبَيْتٍ، ولٰكِنْ رَأَيْتُ زَوْرَقًا قاتِمَ اللَّوْنِ، لا بُدَّ أَنَّهُ ما بَقِيَ مِنْ مَرْكَبٍ قَديمٍ، وقَدْ رَسا على رِمالِ الشّاطِئِ. كانَ لَهُ بابٌ وشَبابيكُ صَغيرَةٌ وفي أَعْلاهُ ما يُشْبِهُ أُنْبوبَ مِدْخَنَةٍ يَتَصاعَدُ مِنْها الدُّخانُ. فَسَأَلْتُ هام: «هَلْ هٰذا بَيْتُكَ؟ أَعْني هٰذا الشَّيْءَ الّذي يُشْبِهُ المَرْكَبَ؟» فَأَجابَني: «أَجَلْ يا سَيِّدُ ديفي.»

بَدا لي المَنْزِلُ، مِنَ الدّاخِلِ، مُرَتَّبًا ونَظيفًا. ودَلَّتْني بيغوتي بِفَخْرٍ على غُرْفَةِ النَّوْمِ

المُعَدَّةِ لي في مُؤَخِّرَةِ المَرْكَبِ. كانَ بَياضُ الجُدْرانِ يُحاكي بَياضَ اللَّبَنِ. وفي زاوِيَةٍ مِنْ زَوايا الغُرْفَةِ رَأَيْتُ سَريري الصَّغيرَ بِغِطائِهِ المُتَعَدِّدِ الأَلْوانِ.

ثُمَّ الْتَقَيْتُ بِالسَّيِّدِ بيغوتي، شَقيقِ مُرَبِّيَتي العَزيزَةِ. وما حَلَمْتُ قَطُّ بِأَنْ أَلْتَقِيَ يَوْمًا بِرَجُلٍ يُضاهيهِ كَرَمًا ونُبْلًا. وقَدِ اصْطَحَبَ مَعَهُ ابْنَةَ أُخْتِهِ الرّائِعَةَ إميلي، وهِيَ طِفْلَةٌ يَتيمَةٌ. رَأَيْتُ أَنَّ هٰؤُلاءِ القَوْمَ يُكَوِّنونَ مَعًا عائِلَةً سَعيدَةً وشَريفَةً وقَدْ سُرِرْتُ جِدًّا بِالتَّعَرُّفِ إِلَيْهِمْ. وكانَتْ تَفوحُ مِنْ بَيْتِهِمْ رائِحَةُ البَحْرِ لِأَنَّ السَّيِّدَ بيغوتي وهام كَرَّسا حَياتَهُما لِلصَّيْدِ.

مَرَّ الأُسْبوعانِ بِسُرْعَةٍ، وشارَفَتِ العُطْلَةُ على نِهايَتِها، فَكانَ عَلَيَّ أَنْ أُوَدِّعَ أَصْدِقائي الطَّيِّبينَ. وأَكْثَرُ ما كانَ يُؤْلِمُني هُوَ الابْتِعادُ عَنْ عَزيزَتي إميلي الصَّغيرَةِ، لِأَنَّنا لَمْ نَفْتَرِقْ طَوالَ العُطْلَةِ. قُلْتُ وعَيْنايَ دامِعَتانِ: «وَداعًا يا إميلي. إِنَّني ذاهِبٌ رُغْمًا عَنّي.»

– الوَداعُ يا ديفي! سَأَشْتاقُ إِلَيْكَ كَثيرًا.

– أَنا أَيْضًا سَأَشْتاقُ إِلَيْكِ، لٰكِنَّني سَأُراسِلُكِ.

وحَمَلَتْني العَرَبَةُ بَعيدًا عَنْ أَصْدِقائي الأَعِزّاءِ. فَاسْتَسْلَمْتُ لِلْحُزْنِ.

فيما كُنّا نَقْتَرِبُ مِنْ بَيْتِنا قالَتْ لي بيغوتي مُرْتَبِكَةً : «عَلَيَّ أَنْ أُخْبِرَكَ بِما حَصَلَ في غِيابِنا يا ديفي . لَقَدْ تَزَوَّجَتْ والِدَتُكَ السَّيِّدَ مُردستون .»

صَدَمَني هٰذا الخَبَرُ إلى أَقْصى حَدٍّ . ولَمْ أَرَ أَحَدًا في البَيْتِ ، فَأَسْرَعْتُ تَوًّا إلى غُرْفَتي حَيْثُ بَكَيْتُ بُكاءً مَريرًا ، إلى أَنْ غَلَبَني النُّعاسُ . بَعْدَ ساعاتٍ ، اسْتَيْقَظْتُ لِأَرى والِدَتي وبيغوتي بِجانِبِ سَريري . قالَتْ أُمّي وهِيَ تُعانِقُني : «ديفي ، يا بُنَيَّ ، لِمَ هٰذا البُكاءُ ؟ عَلَيْكَ أَنْ تَفْرَحَ مِنْ أَجْلي .» في تِلْكَ اللَّحْظَةِ دَخَلَ الغُرْفَةَ السَّيِّدُ مُردستون ، ولَمْ يُحاوِلْ أَنْ يُخْفِيَ سُخْطَهُ لِرُؤْيَتِهِ أُمّي تُشارِكُني حُزْني . وكُلُّ ما قالَهُ لَها هُوَ : «لا تُدَلِّلي الصَّبِيَّ ، بَلْ حافِظي عَلى صَرامَتِكِ !»

وَفي وَقْتٍ لاحِقٍ الْتَقَيْتُ بِشَقيقَةِ السَّيِّدِ مُردستون الَّتي كَرِهَتْني مِنْ أَوَّلِ نَظْرَةٍ . وقَدْ تَوَلَّتْ إدارَةَ مَنْزِلِنا ، وعامَلَتْ أُمّي مُعامَلَتَها لِطِفْلَةٍ عاجِزَةٍ عَنِ القِيامِ بِأَيِّ عَمَلٍ نافِعٍ .

تَأَزَّمَ الوَضْعُ ، ذاتَ يَوْمٍ ، عِنْدَما لَجَأَ السَّيِّدُ مُردستون إلى ضَرْبي بِعَصاهُ مِنْ غَيْرِ رَحْمَةٍ لِأَنَّني لَمْ أَحْفَظْ دُروسي عَلى أَكْمَلِ وَجْهٍ . فَحاوَلْتُ أَنْ أُقاوِمَهُ ، وانْتَهى بي الأَمْرُ إلى عَضِّهِ بِيَدِهِ . ونَتيجَةً لِذٰلِكَ حَجَزَني في غُرْفَتي مُدَّةَ خَمْسَةِ أَيّامٍ أُخْرِجْتُ بَعْدَها لِأُرْسَلَ رَأْسًا إلى مَدْرَسَةٍ داخِلِيَّةٍ . وبِالرُّغْمِ مِمّا انْطَوى عَلَيْهِ ذٰلِكَ مِنْ بُعْدٍ عَنْ والِدَتي وبيغوتي العَزيزَةِ فَقَدْ شَعَرْتُ بِالفَرَحِ لِلابْتِعادِ عَنْ زَوْجِ أُمّي القاسي وشَقيقَتِهِ المُزْعِجَةِ .

وَقَفَتِ العَرَبَةُ ، في الصَّباحِ ، أَمامَ المَنْزِلِ لِتُقِلَّني وأَمْتِعَتي إلى المَحَطَّةِ . وكانَ سائِقُ العَرَبَةِ رَجُلًا غامِضًا ساكِنًا يُدْعى باركيس . وقَدْ ظَهَرَ لي أَنَّهُ كانَ يُبْدي بَعْضَ الاهْتِمامِ بِبيغوتي . وفيما راحَ الحِصانُ يَعْدو بِالعَرَبَةِ عَلى الطَّريقِ أَخَذَ باركيس يَطْرَحُ الأَسْئِلَةَ حَوْلَ بيغوتي . ولاحَظْتُ أَنَّهُ كَتَبَ اسْمَها بِالطَّباشيرِ داخِلَ عَرَبَتِهِ .


قالَ : «أَظُنُّ أَنَّكَ سَتُراسِلُها .»

وأَجَبْتُ : «أَجَلْ . بِالطَّبْعِ .»

فَقالَ باركيس بِشَيْءٍ مِنَ الغُموضِ : «إذًا قُلْ لَها إنَّ باركيس راغِبٌ حَقًّا .»

وكَرَّرَ رِسالَتَهُ عِدَّةَ مَرّاتٍ طالِبًا مِنّي ، بِإلْحاحٍ ، أَنْ أَنْقُلَها إلى بيغوتي . وبَعْدَ أَيّامٍ ، وَفَيْتُ بِوَعْدي ، فَبَلَّغْتُ بيغوتي رِسالَتَهُ عِنْدَما كَتَبْتُ إلَيْها .

كانَتْ «سالم هاوس» مَدْرَسَةً داخِلِيَّةً صَغيرَةً في إحْدى ضَواحي لَنْدن ، يَمْلِكُها السَّيِّدُ كريكل ، ولَمْ أَرَ في حَياتي مَكانًا مُوحِشًا وكَئيبًا وبَغيضًا كَذٰلِكَ المَكانِ . وسَرْعانَ ما تَبَيَّنَ لي أَنَّ تَلاميذَ تِلْكَ المَدْرَسَةِ كانوا يُعامَلونَ مُعامَلَةَ البَهائِمِ لا البَشَرِ ، فَالسَّيِّدُ كريكل ، مُديرُ المَدْرَسَةِ ، رَجُلٌ قاسٍ غَيْرُ مُثَقَّفٍ ، يَجِدُ مُتْعَةً في ضَرْبِ كُلِّ مَنْ تَطالُهُ عَصاهُ .



لَمْ يُساعِدْني على تَحَمُّلِ العَيْشِ في تِلْكَ المَدْرَسةِ سِوى صَداقةِ صَبِيَّيْنِ أَحَدُهُما ترادلز. وكانَ في مِثْلِ سِنّي ، وقَدْ أَصْبَحْنا صَديقَيْنِ مُتَلازِمَيْنِ دائِمًا . وإنّي أَسْتَطيعُ الآنَ أَنْ أُحْيِي صورَتَهُ في ذاكِرَتي فَأَرى فَتًى مَرِحًا بِلِباسٍ ضَيِّقٍ تَبْدو فيه ساقاهُ وذِراعاهُ أَشْبَهَ بِكَعْكَتَيْنِ مَلْفوفَتَيْنِ. وغالِبًا ما كانَتْ عَصا السَّيِّدِ كريكل تَسْتَهْدِفُهُ ، إلّا أَنَّهُ كانَ يَسْتَعيدُ مَرَحَهُ بِسُرْعَةٍ. أَمّا صَديقي الآخَرُ ، فَزَعيمُ المَدْرَسَةِ ومَعْبودُ الجَميعِ ستيرْفورْث . وكانَ هٰذا لامِعًا في دُروسِهِ ، وسيمًا يَلْفِتُ النَّظَرَ بِحُسْنِ طَلْعَتِهِ ويَتَحَلّى بِجاذِبِيَّةٍ طَبيعِيَّةٍ. وبالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كانَ يَكْبُرُني بِسِتَّةِ أَعْوامٍ فَلَقَدْ صادَقَني وتَوَلّى حِمايَتي مِنْ كُلِّ ما يَتَعَرَّضُ لَهُ تَلاميذُ المَدارِسِ الدّاخِلِيَّةِ. لِذٰلِكَ كُنْتُ شَديدَ الاعْتِزازِ بِصَداقَتِهِ.

ذاتَ يَوْمٍ فاجَأَني الإعْلانُ عَنْ وُصولِ زائِرَيْنِ لِرُؤْيَتي. وسُرِرْتُ كَثيرًا عِنْدَما رَأَيْتُ أَنَّهُما السَّيِّدُ بيغوتي وهام. وانْتَهَزْتُ الفُرْصَةَ لِأُقَدِّمَ ستيرْفورْث إلى صَديقَيَّ العَزيزَيْنِ. وبَدا ستيرْفورْث كَعادَتِهِ مَرِحًا طَلْقَ المُحَيّا ووُدِّيًّا. وقَدْ عَبَّرَ عَنْ بالِغِ سُرورِهِ بِالتَّعَرُّفِ إلى الصَّديقَيْنِ اللَّذَيْنِ طالَما حَدَّثْتُهُ عَنْهُما. وأُعْجِبَ السَّيِّدُ بيغوتي وهام بِزَميلي اللَّطيفِ.

قالَ بيغوتي : «إنّي تَحْتَ تَصَرُّفِكُما ، وأَنا أُرَحِّبُ بِكُما في بَيْتِنا الصَّغيرِ مَتى شِئْتُما.»

فَكَّرْتُ بِأَنْ أَسْأَلَ السَّيِّدَ بيغوتي عَنْ عَزيزَتي الصَّغيرَةِ إميلي ، غَيْرَ أَنَّ الخَجَلَ حالَ دونَ ذِكْري اسْمَها أَمامَ ستيرْفورْث . وكانَ السَّيِّدُ بيغوتي قَدْ أَخْبَرَني سابِقًا بِأَنَّها لَمْ تَعُدْ طِفْلَةً بَلْ أَصْبَحَتْ صَبِيَّةً ناضِجَةً ، مِمّا أَثارَ فِيَّ بَعْضَ القَلَقِ.

وأَخيرًا انْتَهَتِ السَّنَةُ المَدْرَسِيَّةُ وجاءَتِ العُطْلَةُ الصَّيْفِيَّةُ الّتي كُنْتُ أَتَرَقَّبُها بِقَلَقٍ ، إذْ كانَتِ الهَواجِسُ تَنْتابُني حَوْلَ مَدى سَعادَةِ أُمّي في بَيْتِنا بِوُجودِ السَّيِّدِ مُرْدستون وشَقيقَتِهِ. رَكِبْتُ عَرَبَةَ السَّيِّدِ بارْكيس لِأَقْطَعَ المَسافَةَ بَيْنَ المَحَطَّةِ وبَيْتِنا . قُلْتُ لَهُ : «لَقَدْ أَبْلَغْتُ بيغوتي رِسالَتَكَ يا سَيِّدُ بارْكيس عِنْدَما كَتَبْتُ إلَيْها.»

وبَدَتِ الكَآبَةُ على مُحَيّاهُ وهُوَ يَقولُ : «لٰكِنَّ ذٰلِكَ لَمْ يُجْدِ نَفْعًا . لَمْ تَرُدَّ عَلَيَّ . نَحْنُ لَمْ نَتَبادَلْ سِوى القَليلِ مِنَ الكَلامِ ، حَتّى إنّي لا أَعْرِفُ اسْمَها الأَوَّلَ.»

فَأَجَبْتُهُ : «اسْمُها كلارا . هَلْ تُريدُني أَنْ أُبَلِّغَها رِسالَةً أُخْرى ؟»

تَمْتَمَ بارْكيس مُرَدِّدًا الاسْمَ : «كلارا ، كلارا.» وراحَ يَكْتُبُهُ بِالطَّباشيرِ أَمامَ اسْمِ بيغوتي . ثُمَّ أَجابَ عَنْ سُؤالي : «أَجَلْ. قُلْ لِبيغوتي إنَّ بارْكيس ما زالَ راغِبًا حَقًّا ، وإنَّهُ يَنْتَظِرُ جَوابًا.»

أَخَذْتُ أَرْتَعِدُ خَوْفًا وَأَنا أَمْشي في مَمَرِّ الحَديقَةِ نَحْوَ بابِ البَيْتِ، إِذْ تَوَقَّعْتُ أَنْ يَكونَ في كُلِّ لَحْظَةٍ مُواجَهَةٌ مَعَ السَّيِّدِ مُرْدِسْتون أَوْ أُخْتِهِ البَغيضَةِ. وما إِنْ أَصْبَحْتُ داخِلَ البَيْتِ حَتّى سَمِعْتُ أُمّي الحَبيبَةَ تُدَنْدِنُ في غُرْفَةِ الجُلوسِ. ورَأَيْتُها جالِسَةً قُرْبَ المَوْقِدِ وفي ذِراعَيْها طِفْلٌ صَغيرٌ.

فُوجِئَتْ أُمّي عِنْدَما تَنَبَّهَتْ لِحُضوري، ثُمَّ انْتَصَبَتْ وضَمَّتْني إلى صَدْرِها بِقُوَّةٍ وهِيَ تَحْمِلُ طِفْلَها بِيَدٍ واحِدَةٍ. ورَفَعَ الطِّفْلُ الرَّقيقُ إِصْبَعَهُ الصَّغيرَةَ إلى شَفَتي لِيَلْمُسَهما.

قالَتْ أُمّي وهِيَ تَجْهَشُ بالبُكاءِ: «إِنَّهُ أَخوكَ. آه! وَلَدي الحَبيبَ ديفي...»

ولَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُكْمِلَ كَلامَها مِنْ فَرْطِ انْفِعالِها. وراحَتْ تُقَبِّلُني وتُعانِقُني بِحَنانٍ. وفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ دَخَلَتْ بيغوتي العَزيزَةُ، ولَمْ تَتَمالَكْ نَفْسَها مِنْ شِدَّةِ فَرَحِها بِرُؤْيَتي. واتَّضَحَ لي أَنَّ زَوْجَ أُمّي والآنِسَةَ مُرْدِسْتون لَنْ يَعودا إلّا في ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنَ اللَّيْلِ. فَقَضَيْتُ ذٰلِكَ النَّهارَ بِرِفْقَةِ أُمّي وبيغوتي وخِلْتُهُ يَوْمًا مِنْ أَيّامِ الماضي الهَنيئَةِ. ولَمْ أَنْسَ أَنْ أُبَلِّغَ بيغوتي رِسالَةَ باركيس. فَصَرَخَتْ مُغْتاظَةً: «يا لَهُ مِنْ رَجُلٍ! لَنْ أَتَزَوَّجَهُ أَبَدًا حَتّى ولَوْ كانَ مَجْبولًا مِنَ الذَّهَبِ.»

طالَ الحَديثُ بَيْنَنا ذٰلِكَ اليَوْمَ، فَتَحَدَّثْنا وتَحَدَّثْنا تَمامًا كَما كُنّا نَفْعَلُ في الماضي. وسَأَلْتُهُما عَمّا إذا زارَتْهُما العَمَّةُ بِتْسي، فَكانَ الجَوابُ أَنَّها لَزِمَتْ كوخَها الصَّغيرَ قُرْبَ دوفر. وعِنْدَما اسْتَيْقَظَ الطِّفْلُ احْتَضَنْتُهُ ورُحْتُ أُراقِبُهُ بِعَطْفٍ وحَنانٍ. ثُمَّ أَخْبَرْتُهُما عَنْ ستيرْفورْث وصَديقي ترادلز، وأَتَتْ بيغوتي عَلى ذِكْرِ المُعامَلَةِ القاسِيَةِ الَّتي خَصَّتْ بِها الآنِسَةُ مُرْدِسْتون والِدَتي، وقَدْ لاحَظْتُ انْزِعاجَ أُمّي لَدى ذِكْرِ ذٰلِكَ.

وبِالطَّبْعِ أَفْسَدَ وُجودُ السَّيِّدِ مُرْدِسْتون وأُخْتِهِ عُطْلَتي، ولِهٰذا السَّبَبِ فَرِحْتُ كَثيرًا عِنْدَما حانَ الوَقْتُ لِلعَوْدَةِ إلى المَدْرَسَةِ.

مَرَّ الفَصْلُ الجَديدُ، كالعامِ السّابِقِ، مَليئًا بِأَعْمالِ السَّيِّدِ كريكل القاسِيَةِ وقِصاصاتِهِ الأَليمَةِ. غَيْرَ أَنَّ صَديقَيَّ المُخْلِصَيْنِ ترادلز وستيرْفورْث ساعَداني عَلى التَّحَمُّلِ، إلى أَنْ صَدَمَتْني فاجِعَةٌ ولا كالفَواجِعِ. فَذاتَ يَوْمٍ دُعيتُ إلى مَكْتَبِ المُديرِ، حَيْثُ وَجَدْتُ السَّيِّدَةَ كريكل بِانْتِظاري وفي يَدِها رِسالَةٌ. وقالَتْ لي: «يُحْزِنُني أَنْ أُخْبِرَكَ بِأَنَّ والِدَتَكَ مَريضَةٌ جِدًّا.» فَشَعَرْتُ وكَأَنَّ الضَّبابَ غَشِيَ عَيْنَيَّ وأَحْسَسْتُ بِالدُّموعِ الحارَّةِ تَنْهَمِرُ عَلى وَجْنَتَيَّ. أَمّا هِيَ، فَأَكْمَلَتْ: «إِنَّ حالَتَها خَطيرَةٌ»، ثُمَّ أَفْلَتَتْ مِنْها الحَقيقَةُ الَّتي كُنْتُ أَتَوَجَّسُها: «لَقَدْ تُوُفِّيَتْ والِدَتُكَ.»

وَجَدْتُني ، في الأَيّامِ التّالِيَةِ ، خائِرَ القُوى مِنْ شِدَّةِ الغَمِّ ، ولَمْ أَعُدْ أَعي ما يَجْري مِنْ حَوْلي ، كُنْتُ ذاهِلًا عَنِ الدُّنْيا عِنْدَما وَضَعوني في عَرَبَةٍ لِنَقْلي إلى البَيْتِ . ولَمْ أُدْرِكْ أَنّي كُنْتُ أُغادِرُ «سالم هاوس» تِلْكَ المَرَّةَ مِنْ غَيْرِ عَوْدَةٍ .

ولا أَرى حاجَةً إلى أَنْ أَذْكُرَ بالتَّفْصيلِ أَيّامَ أُمّي الأَخيرَةَ الأَليمَةَ وجَنازَتَها المُفْجِعَةَ . فَقَدْ ماتَ أَخي الصَّغيرُ هُوَ أَيْضًا فَأُجْرِيَ لَهُ ولِأُمّي مَأْتَمٌ مُزْدَوِجٌ ودُفِنا مَعًا ، الصَّغيرُ بَيْنَ ذِراعَيْها . أَمّا بيغوتي المِسْكينَةُ ، فَكانَتْ كَسيرَةَ القَلْبِ بَعْدَ أَنْ شاهَدَتْ عالَمَها الصَّغيرَ المَأْلوفَ يَنْهارُ مِنْ حَوْلِها . وما زادَ في الطِّينِ بِلَّةً ، أَنَّ السَّيِّدَ مُرْدستون وأُخْتَهُ صَرَفاها مِنَ الخِدْمَةِ . إلّا أَنَّ ذِكْرى أُمّي الحَنونِ الّتي سَتَبْقى مَحْفورَةً في قَلْبي هِيَ ذِكْراها أَيّامَ طُفولَتي الّتي قَضَيْتُها مَعَها ومَعَ بيغوتي في هَناءٍ وسَعادَةٍ . هٰذِهِ الذِّكْرَياتُ ، لا شَيْءَ قادِرٌ على سَلْبِها مِنّي .

وسَرَّتْني المُفاجَأَةُ عِنْدَما عَرَضَ السَّيِّدُ مُرْدستون على بيغوتي أَنْ تَأْخُذَني مَعَها إلى يارموث لِأَقْضِيَ عُطْلَةً قَصيرَةً هُناكَ .

أَتى باركيس في اليَوْمِ التّالي لِيَنْقُلَنا وحَقائِبَنا إلى يارموث . وفيما أَخَذَتِ العَرَبَةُ تَجْري بِنا عَلى الطَّريقِ كانَ باركيس على غَيْرِ عادَتِهِ طَلْقَ اللِّسانِ .

وهَمَسَ في أُذُني : «لَقَدِ اسْتَقامَتِ الأُمورُ يا سَيِّدُ كوپرفيلد ، كُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ .» وأَمْسَكَ بِيَدي وراحَ يَهُزُّها بِحَرارَةٍ ، ثُمَّ أَرْدَفَ : «أَنْتَ تَعْلَمُ مَنْ كانَ راغِبًا حَقًّا . تَعْلَمُ أَنَّهُ باركيس وَحْدَهُ .» وأَكْمَلَ وهُوَ يومِئُ بِرَأْسِهِ ويَغْمِزُني : «والآنَ لا يَسَعُني إلّا أَنْ أَشْكُرَكَ .»

وأَخيرًا أَنْزَلَنا أَمامَ بَيْتِ السَّيِّدِ بيغوتي ، وكَمْ بَدَتْ لي مَأْلوفَةً تِلْكَ السَّفينَةُ – بِنَوافِذِها الصَّغيرَةِ وبِالدُّخانِ المُتَصاعِدِ مِنْ مَدْخَنَتِها . وكانَ فَرَحي عَظيمًا بِلِقاءِ أَصْدِقائي الثَّلاثَةِ السَّيِّدِ بيغوتي وهام وإميلي الصَّغيرَةِ الّتي أَصْبَحَتْ صَبِيَّةً فاتِنَةَ الجَمالِ ، ولَمْ يَسَعْني إلّا أَنْ أُلاحِظَ شَغَفَ هام بِها ورِعايَتَهُ لَها وكَأَنَّها أُخْتُهُ الصُّغْرى .

وسَأَلَني السَّيِّدُ بيغوتي : «وكَيْفَ حالُ صَديقِكَ الشَّهْمِ ؟» فَسَأَلْتُهُ بِدَوْري : «تَعْني



ستيرفورث ؟» وأَجابَ ، مُتَحَمِّسًا : «أَجَلْ ! هٰذا هُوَ اسْمُهُ ! إِنَّهُ لَصَديقٌ رائِعٌ ! ويا لَهُ مِنْ شابٍّ وَسيمٍ !»

بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ، كانَتْ تَنْتَظِرُني مُفاجَأَةٌ كَبيرَةٌ . فَقَدْ تَزَوَّجَ باركيس بيغوتي في احْتِفالٍ بَسيطٍ . ودَعاني باركيس إلى عَرَبَتِهِ وأَخْرَجَ الطَّباشيرَ وكَتَبَ اسْمَ «كلارا بيغوتي باركيس» ، ثُمَّ اسْتَغْرَقَ في ضِحْكَةٍ تُفْصِحُ عَنْ سُرورِهِ العارِمِ . لَقَدِ ارْتَحْتُ كَثيرًا لِأَنَّ عَزيزَتي بيغوتي قَدْ عَثَرَتْ أَخيرًا على السَّعادَةِ باسْتِقْرارِها في بَيْتِها الجَديدِ . وما لَبِثَتْ إقامَتي في يارموث أَنِ انْتَهَتْ بِسُرْعَةٍ ، فَوَدَّعْتُ بيغوتي وبَقِيَّةَ أَحِبّائي هُناكَ بِتَأَثُّرٍ بالِغٍ .

عُدْتُ إلى مَنْزِلي وقَدِ اسْتَوْطَنَتِ الكَآبَةُ في قَلْبي. فَبَعْدَ وَفاةِ أُمّي ورَحيلِ پيغوتي لَمْ يَعُدْ يَرْبِطُني بِهِ شَيْءٌ. بَيْدَ أَنّي فوجِئْتُ في اليَوْمِ التّالي بِقَوْلِ السَّيِّدِ مُرْدْستون إِنَّهُ لَنْ يُرْسِلَني إلى المَدْرَسَةِ، بَلْ عَلَيَّ أَنْ أَبْدَأَ العَمَلَ في مَكْتَبِ المُحاسَبَةِ لَدى شَرِكَةِ «مُرْدْستون وغرِنْبي التِّجارِيَّة» الواقِعَةِ في حَيٍّ بلاكْفرايرْز بِلَنْدن. وأَتى المُديرُ السَّيِّدُ كوينْيون واجْتَمَعَ بِالسَّيِّدِ مُرْدْستون لِإجْراءِ التَّرْتيباتِ اللّازِمَةِ لِذٰلِكَ.

وهٰكَذا أَصْبَحْتُ –في العاشِرَةِ مِنْ عُمْري– عامِلًا كادِحًا في خِدْمَةِ «مُرْدْستون وغرِنْبي» مُقابِلَ أَجْرٍ ضَخْمٍ يَبْلُغُ سِتَّةَ شِلِناتٍ أُسْبوعِيًّا!! ولَمْ أَعْمَلْ في مَكْتَبِ المُحاسَبَةِ بَلْ في مُسْتَوْدَعٍ قَذِرٍ تَرْتَعُ فيهِ الجِرْذانُ، يَقَعُ في زُقاقٍ ضَيِّقٍ يُؤَدّي إلى ضِفَّةِ النَّهْرِ. كانَ عَلَيَّ أَنْ أَجْمَعَ أُلوفَ الزُّجاجاتِ وأُنَظِّفَها يَوْمِيًّا. أَمّا رِفاقي، فَثَلاثَةُ صَعاليكَ أَفْظاظٍ يَجْهَلونَ الكِتابَةَ والقِراءَةَ. ورَضَخْتُ لِهٰذِهِ العُبودِيَّةِ المُهينَةِ، كاتِمًا عَذابًا لا يوصَفُ.

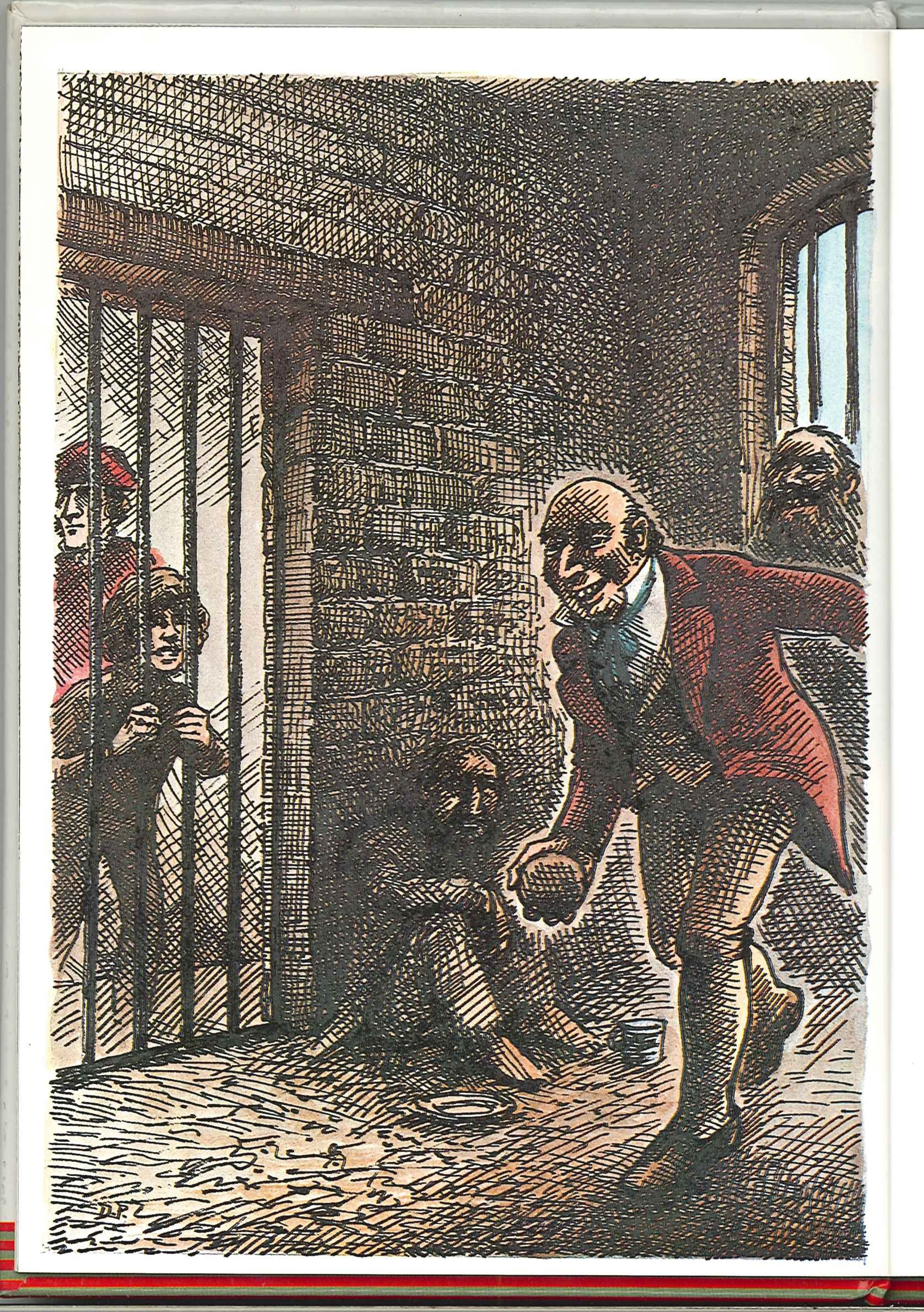


وذاتَ صَباحٍ، دَخَلَ حَياتي فَجْأَةً، شَخْصٌ غَريبٌ نابِضٌ بِالحَيَوِيَّةِ. إِنَّهُ كَهْلٌ بَدينٌ يَرْتَدي مِعْطَفًا أَسْوَدَ وحِذاءً مُوَثَّقًا بِإِبْزيمٍ ويَعْرِضُ صَلْعَةً لامِعَةً. وعَلى الرَّغْمِ مِنْ ثِيابِهِ البالِيَةِ كانَ يَحْمِلُ عَصًا يومِئُ بِها يَمينًا وشِمالًا ويُمْسِكُ نَظّارَةً لَها سِلْسِلَةٌ لامِعَةٌ.

قالَ السَّيِّدُ كوينْيون: «هٰذا السَّيِّدُ ميكوبر». اِنْحَنى السَّيِّدُ ميكوبر بِلِياقَةٍ، وأَرْدَفَ كوينْيون: «إِنَّ السَّيِّدَ مُرْدْستون يَعْرِفُهُ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ. وقَدْ طَلَبَ أَنْ تُقيمَ في مَنْزِلِهِ.» وتَدَخَّلَ السَّيِّدُ ميكوبر قائِلًا: «عُنْواني: وندسور تراس، سيتي رود.»

في ذٰلِكَ المَساءِ حَضَرَ السَّيِّدُ ميكوبر إلى المُسْتَوْدَعِ لِيَقودَني إلى مَنْزِلِهِ، حَيْثُ عَرَّفَني بِالسَّيِّدَةِ ميكوبر. كانَتِ امْرَأَةً في خَريفِ العُمْرِ، نَحيفَةً ذابِلَةَ الوَجْهِ تُرْضِعُ أَحَدَ طِفْلَيْها التَّوْأَمَيْنِ. وكُنْتَ دائِمًا تَرى أَحَدَهُما عَلى صَدْرِها. وقَدْ أَنْجَبَتِ السَّيِّدَةُ ميكوبر وَلَدَيْنِ آخَرَيْنِ: السَّيِّدُ ميكوبر الصَّغيرُ وهُوَ في الرّابِعَةِ مِنْ عُمْرِهِ، والآنِسَةُ ميكوبر ولَها مِنَ العُمْرِ ثَلاثُ سَنَواتٍ.

قالَتْ لي السَّيِّدَةُ ميكوبر، ونَحْنُ نَصْعَدُ إلى الغُرْفَةِ المُعَدَّةِ لي: «لَمْ أُفَكِّرْ قَطُّ في تَأْجيرِ الغُرْفَةِ. لٰكِنْ يَبْدو أَنَّ السَّيِّدَ ميكوبر يُواجِهُ بَعْضَ الصُّعوباتِ في تَسْديدِ دُيونِهِ في الوَقْتِ الحاضِرِ.» وعَلى الرَّغْمِ مِنْ حَيْرَتي، لَمْ يَسَعْني إِلّا أَنْ أَقولَ: «أَجَلْ، سَيِّدَتي.»



سَرْعانَ ما تَبَيَّنَ لي أَنَّ السَّيِّدَ ميكوبر اعْتادَ أَنْ يَعيشَ مُهَدَّدًا بِالإِفْلاسِ. فَفي الواقِعِ كَلَّفَتْني السَّيِّدَةُ ميكوبر مِرارًا بِبَيْعِ أَشْياءَ صَغيرَةٍ قَيِّمَةٍ كَيْ تَتَمَكَّنَ مِنْ إِعالَةِ الأُسْرَةِ. إلّا أَنَّ القَدَرَ كانَ يُعِدُّ لِلسَّيِّدِ ميكوبر ضَرْبَةً قاسِيَةً، فَأُوقِفَ وأُخِذَ إلى السِّجْنِ بِسَبَبِ عَدَمِ تَسْديدِهِ الدُّيونَ المُتَراكِمَةَ عَلَيْهِ. واسْتَطَعْتُ أَنْ أَزورَهُ عِدَّةَ مَرّاتٍ في سِجْنِهِ حَيْثُ كانَ يَبْدو، في لَحَظاتٍ بائِسًا، ثُمَّ، بَعْدَ قَليلٍ، يَشْتَرِكُ في لُعْبَةِ القَنانيِّ الخَشَبِيَّةِ مَعَ بَعْضِ زُمَلائِهِ المَساجينِ، كَأَنَّهُ لا يَعْرِفُ الهَمَّ. وفي سِجْنِهِ أَفادَني بِرُؤْيَتِهِ الفَلْسَفِيَّةِ لِلحَياةِ، قائِلًا بِنَبْرَةٍ مَهيبَةٍ: «يا سَيِّدُ كوپرفيلْد، يَجِبُ أَنْ تَرَى في قَدَري المَشْؤومِ دَرْسًا تَتَعَلَّمُ مِنْهُ. إِنّي أَقولُ لَكَ: إذا كانَ مَدْخولُكَ عِشْرينَ جُنَيْهًا في السَّنَةِ وأَنْفَقْتَها كُلَّها بِاسْتِثْناءِ نِصْفِ شِلِنٍ فَإِنَّكَ تَكونُ سَعيدًا. أَمّا إذا أَنْفَقْتَ واحِدًا وعِشْرينَ جُنَيْهًا فَمَصيرُكَ البُؤْسُ والشَّقاءُ. هٰذا كُلُّ ما عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَهُ. ولٰكِنّي مُتَأَكِّدٌ مِنْ أَنَّ وَضْعي سَيَتَغَيَّرُ في وَقْتٍ قَريبٍ جِدًّا عَلى الرَّغْمِ مِنَ العَذابِ الّذي أُعانيهِ الآنَ.»

وَتَحَمَّلَ السَّيِّدُ ميكوبر عيشَتَهُ المَريرَةَ في السِّجْنِ، خِلالَ بِضْعَةِ أَسابيعَ، إلى أَنْ أُطْلِقَ سَراحُهُ فَجْأَةً بَعْدَ أَنْ قامَ بَعْضُ أَقْرِبائِهِ بِتَسْديدِ قِسْطٍ كَبيرٍ مِنْ دُيونِهِ. وبَعْدَ الإِفْراجِ عَنِ السَّيِّدِ ميكوبر بِبِضْعَةِ أَيّامٍ حَدَثَ شَيْءٌ مُهِمٌّ لِمَصْلَحَتِهِ، فَقَدْ رَأَيْتُهُ يَسْتَقِلُّ عَرَبَةً مَعَ عائِلَتِهِ فَرِحينَ مُبْتَهِجينَ في بِدايَةِ طَريقِهِمْ إلى پليموث حَيْثُ كانَ مَوْعودًا بِعَمَلٍ في إِدارَةِ الجَمارِكِ، وتَأَسَّفْتُ عَلى خَسارَةِ ذٰلِكَ الصَّديقِ الكَريمِ البَشوشِ، إلّا أَنّي شَعَرْتُ في الوَقْتِ نَفْسِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الارْتِياحِ لِأَنّي لَنْ أَتَوَرَّطَ بَعْدَ الآنَ بِمَشاكِلِهِ اليَوْمِيَّةِ العَصيبَةِ.

وحَمَلَني يَأْسي آنَذاكَ عَلى اتِّخاذِ قَرارٍ جَريءٍ. فَرَفَضْتُ أَنْ أَتَحَمَّلَ بَعْدَ ذٰلِكَ العُبودِيَّةَ والإِذْلالَ اللَّذَيْنِ عَرَفْتُهُما في مُسْتَوْدَعِ شَرِكَةِ «مُرْدْستون وغرِنْبي»، وعَزَمْتُ عَلى أَنْ أَهْرُبَ وأَبْحَثَ في دوڤر عَنْ قَريبَتي الوَحيدَةِ الباقِيَةِ لي عَلى هٰذِهِ الأَرْضِ – العَمَّةِ بِتْسي تروتْوود.



في نِهايَةِ الأُسْبوعِ قَبَضْتُ راتِبي الأَخيرَ ، فَأَصْبَحَ في مِحفَظَتي نِصفُ جُنَيْهٍ . ووَضَعْتُ صُنْدوقَ ثِيابي على ظَهْرِ عَرَبَةٍ يَقودُها شابٌّ اِلْتَقَيْتُ بِهِ على الطَّريقِ ، وانْطَلَقَ بي إلى دوفر. بَعْدَ أَنْ عَبَرْنا بِضْعَةَ أَمْيالٍ ، تَوَقَّفَ لأَتَمكَّنَ مِنْ لَصْقِ رُقْعَةٍ مِنَ الوَرَقِ تَحمِلُ اسْمي على الصُّنْدوقِ ، إذْ كُنْتُ قَدْ تَجَنَّبْتُ قَصْدًا تَسْجيلَ اسْمي والمَكانِ الّذي كُنْتُ أَقْصِدُهُ قَبْلَ أَنْ أُغادِرَ غُرْفَتي . وبَيْنَما كُنْتُ أُخْرِجُ الرُّقْعَةَ مِنْ مِحفَظَتي وَقَعَ مِنْها نِصفُ الجُنَيْهِ وهُوَ كامِلُ ثَرْوَتي ، وصُعِقْتُ عِنْدَما رَأَيْتُ سائِقَ العَرَبَةِ يَنْتَشِلُهُ على الفَوْرِ.

قالَ بِنَبْرَةٍ تُنْذِرُ بِالشَّرِّ : «آهِ ! إنَّكَ تُحاوِلُ الفِرارَ ، أَلَيْسَ كَذلِكَ ؟ أَظُنُّ أَنَّها قَضِيَّةٌ تَخُصُّ الشُّرْطَةَ . »

خِفْتُ أَنْ يُؤْذِيَني ذلِكَ المُحْتالُ وتَمَنَّيْتُ التَّخَلُّصَ مِنْهُ ، فَصَرَخْتُ بِهِ : «رُدَّ لي مالي وصُنْدوقَ ثِيابي . » إلّا أَنَّهُ أَصَرَّ على مَوْقِفِهِ : «لا . لا . لِمَ لا تَذْهَبُ إلى الشُّرْطَةِ ، لِتُثْبِتَ لَهُمْ بِنَفْسِكَ أَنَّ المالَ والصُّنْدوقَ لَكَ ؟» ثُمَّ قَفَزَ إلى عَرَبَتِهِ وانْطَلَقَ بِسُرْعَةِ السَّهْمِ ، آخِذًا نِصفَ الجُنَيْهِ والصُّنْدوقَ الّذي يَحْتَوي أَمْتِعَتي التّافِهَةَ كُلَّها.

لَمْ يَبْقَ أَمامي إذ ذاكَ إلّا أَنْ أَمْشِيَ على قَدَمَيَّ نَهارًا وأَنامَ في أَكْوامِ التِّبْنِ لَيْلًا إلى أَنْ أَبْلُغَ دوفر. فَمَشَيْتُ خِلالَ سِتَّةِ أَيّامٍ على الطَّريقِ المُؤَدِّيَةِ إلى دوفر مُرورًا بروشستر وكانتربوري حَتّى بَلَغَ بي التَّعَبُ كُلَّ مَبْلَغٍ . وقَدِ اضْطُرِرْتُ لِبَيْعِ صُدْرَتي ومِعْطَفي لأَتَمَكَّنَ مِنْ شِراءِ ما يَسُدُّ جوعي . ووَصَلْتُ إلى دوفر مُلَطَّخًا بِالأَوْساخِ مُمَزَّقَ الحِذاءِ والثِّيابِ حَتّى إنَّني أَصْبَحْتُ أَشْبَهَ بِفَزّاعَةِ الطُّيورِ.

وبَعْدَ أَنِ اسْتَعْلَمْتُ عَنِ المَكانِ ، وَجَدْتُ طَريقي إلى كوخِ بِتْسي الصَّغيرِ . فَرُحْتُ أَسْتَجْمِعُ ما كانَ يَلْزَمُني مِنْ شَجاعَةٍ لِقَرْعِ البابِ ، إلّا أَنَّ العَمَّةَ بِتْسي خَرَجَتْ في تِلْكَ اللَّحظَةِ مُرْتَدِيَةً ثِيابَ الحَديقَةِ ولَمَحَتْني عِنْدَ البابِ فَصاحَتْ : «هَيّا ! اِرْحَلْ مِنْ هُنا ! »

فَشَرَعْتُ بِالكَلامِ وقَدِ اعْتَراني الخَجَلُ : «أَرْجوكِ يا سَيِّدَتي ! »

اِرْتَعَشَتِ العَجوزُ ورَفَعَتْ بَصَرَها إلَيَّ . فَأَرْدَفْتُ : «أَرْجوكِ يا عَمَّتي ! إنّي قَريبُكِ ديفيد كوبرفيلد . »

ومِنْ هَوْلِ المُفاجَأَةِ سَقَطَتِ العَمَّةُ بِتْسي أَرْضًا وظَلَّتْ جالِسَةً على أَرْضِ المَمَرِّ مُحَمْلِقَةً إلَيَّ بِعَيْنَيْنِ مَفْتوحَتَيْنِ . ولكِنَّها ما لَبِثَتْ أَنِ اسْتَعادَتْ قُواها ، فَأَدْخَلَتْني بَيْتَها ، وجَرَّعَتْني الأَدْوِيَةَ ، وأَكَّدَتْ لي أَنّي سَأَسْتَحِمُّ حالًا وأُبَدِّلُ ثِيابي .

رُحْتُ أَتَفَحَّصُ عَمَّتي بِفُضولٍ: كانَتِ امْرَأَةً طَويلَةَ القامَةِ، مَليحَةَ المَظْهَرِ، ذاتَ عَيْنَيْنِ بَرّاقَتَيْنِ تَتَحَرَّكُ حَدَقَتاهُما بِسُرْعَةٍ غَريبَةٍ. أَمّا لِباسُها فَعَجيبٌ بَلْ أَشْبَهُ بِرِداءِ الفُروسِيَّةِ. وكانَتْ دائِمًا تَحْمِلُ ساعَةً كَالَّتي يَحْمِلُها الرِّجالُ مَعَ ما يُرافِقُها مِنْ سَلاسِلَ. أَمّا بِالنِّسْبَةِ لِطِباعِها فَقَدْ كانَتْ خَشِنَةً حاسِمَةَ القَرارِ، وَأَحْيانًا فَظَّةً إِلى أَقْصى حَدٍّ.

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ بِالذّاتِ، أَلْقَتْ نَظْرَةً عَلى الفُسْحَةِ الخَضْراءِ الضَّيِّقَةِ خارِجَ بُسْتانِها. وصَرَخَتْ لِخادِمَتِها: «جانيت! الحَميرُ يا جانيت!» فَهَرْوَلَتِ الصَّبِيَّةُ إِلى الخارِجِ وَأَمْسَكَتْ بِلِجامِ أَحَدِ الحَميرِ الَّتي شَرَدَتْ مُنْتَهِكَةً حُرْمَةَ المَرْجَةِ، وقادَتْهُ بَعيدًا، وراحَتْ تَلْكُمُ أُذُنَ الفَتى الصَّغيرِ الَّذي يَقودُهُ، واتَّضَحَ لي أَنَّ عَمَّتي كانَتْ تُكافِحُ تِلْكَ الحَميرَ الشّارِدَةَ بِاسْتِمْرارٍ، فَتَحْتَفِظُ بِوِعاءٍ مِنَ الماءِ وحُزْمَةٍ مِنَ القُضْبانِ خَلْفَ بابِها الأَمامِيِّ اسْتِعْدادًا لِمُواجَهَةِ طَوارِئَ مِنْ هٰذا النَّوْعِ.

لَزِمَني أُسْبوعانِ كامِلانِ مِنَ الرّاحَةِ والنَّعيمِ لِأَسْتَعيدَ عافِيَتي، بَعْدَ ما عانَيْتُهُ مِنْ شَقاءٍ. وتَحَقَّقْتُ شَيْئًا فَشَيْئًا مِنْ طيبَةِ عَمَّتي بِتْسي ولُطْفِها، فَقَدْ غَمَرَتْني بِحُبِّها وحَنانِها عَلى الرُّغْمِ مِنْ غَرابَةِ أَطْوارِها وتَقَلُّبِ مِزاجِها، حَتّى إِنَّها أَصَرَّتْ عَلى اقْتِرانِ اسْمي بِاسْمِها «تروتوود».

وذاتَ صَباحٍ قالَتْ لي بِطَريقَتِها الخَشِنَةِ الَّتي طالَما اعْتَدْتُها: «يَجِبُ أَلّا نَتَغاضى عَنْ أَمْرِ تَعْليمِكَ يا تروت! (وكانَ يَطيبُ لَها أَنْ تُدَلِّعَني بِهٰذا الاسْمِ) أَتَوَدُّ أَنْ أُرْسِلَكَ إِلى مَدْرَسَةٍ في كانتربوري؟» فَأَجَبْتُها أَنَّ ذٰلِكَ يَسُرُّني فِعْلًا لا سِيَّما وإِنّي في هٰذِهِ الحالِ لَنْ أَبْتَعِدَ عَنْها كَثيرًا.

وهٰكَذا، اتَّجَهْنا، في اليَوْمِ التّالي، إِلى مَكْتَبِ مُحاميها السَّيِّدِ وِكْفيلْد في كانتربوري. حَيْثُ اسْتَقْبَلَنا شَخْصٌ كانَ أَكْثَرَ النّاسِ الَّذينَ عَرَفْتُهُمْ في حَياتي غَرابَةً وَأَبْغَضَهُمْ إِلَيَّ. وكانَتْ عَمَّتي تَعْرِفُهُ جَيِّدًا. فَسَأَلَتْهُ: «يا سَيِّدُ أوريّا هيب، هَلِ الأُسْتاذُ وِكْفيلْد هُنا؟»

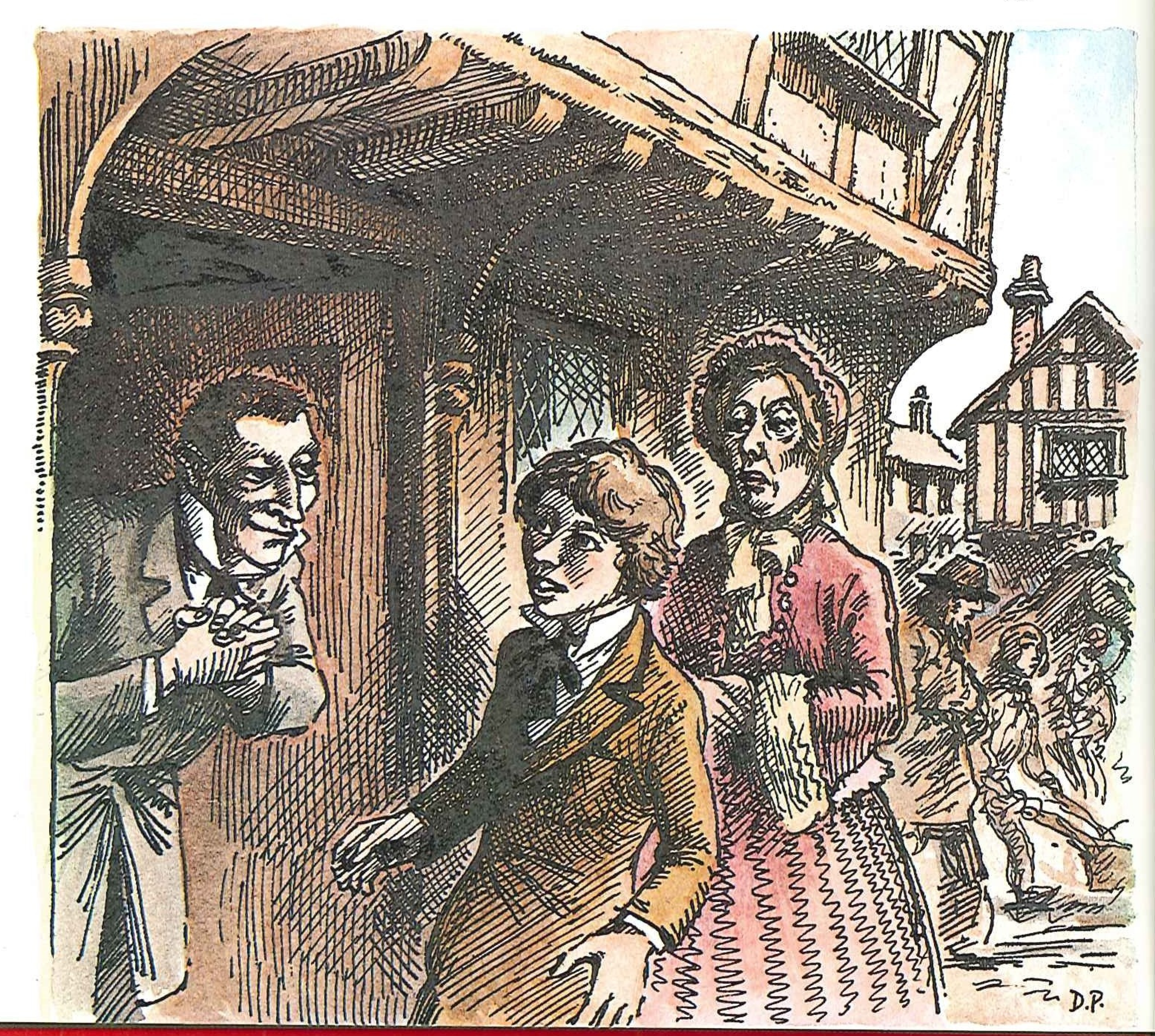
فَأَجابَها مُنْحَنِيًا عَلى سَبيلِ المُجامَلَةِ: «أَجَلْ سَيِّدَتي. سَأَقودُكِ إِلَيْهِ.» وَأَنْعَمْتُ النَّظَرَ إِلى السَّيِّدِ هيب بِشَيْءٍ مِنَ الاشْمِئْزازِ، إِذْ كانَ وَجْهُهُ هَزيلًا شاحِبًا، أَمّا شَعْرُهُ فَضارِبٌ إِلى الحُمْرَةِ وكَذٰلِكَ عَيْناهُ. وما اسْتَغْرَبْتُهُ بِصورَةٍ خاصَّةٍ أَنّي لَمْ أَرَ في وَجْهِهِ أَثَرًا لِحاجِبَيْنِ. وراحَ يَلْوي يَدَيْهِ المُتَشابِكَتَيْنِ الطَّويلَتَيْنِ – وكَأَنَّهُما مِنْ هَيْكَلٍ عَظْمِيٍّ – وهُوَ يَنْحَني

وَيَنْحَني أَمامَنا. فَبَدا لي أَقْرَبَ إِلى الزَّواحِفِ مِنْهُ إِلى الجِنْسِ البَشَرِيِّ.

رَحَّبَ بِنا السَّيِّدُ وِكْفيلْد عِنْدَما أُدْخِلْنا مَكْتَبَهُ، قائِلًا: «أَهْلًا بِالآنِسَةِ بِتْسي تروتوود! ما الَّذي حَمَلَكُمْ إِلَيْنا؟»

أَجابَتْهُ عَمَّتي: «لَمْ آتِ لِأَسْتَشيرَكَ في مَسْأَلَةٍ قانونِيَّةٍ، بَلْ لِأَلْتَمِسَ مِنْكَ نَصيحَةً في شَأْنِ اخْتِيارِ مَدْرَسَةٍ لائِقَةٍ لِقَريبي ديفيد كوبرفيلد. فَإِنّي عَمَّةُ أَبيهِ.»

أَجابَ السَّيِّدُ وِكْفيلْد: «أَعْرِفُ مَدْرَسَةً تُناسِبُ طَلَبَكِ. فَفي كانتربوري مَدْرَسَةٌ مُمْتازَةٌ. وإِنَّهُ لَمِنْ دَواعي السُّرورِ بِالنِّسْبَةِ لي أَنْ يَقْطُنَ هٰذا الشّابُّ في بَيْتي، وَلَوْ في الفَتْرَةِ الأُولى.»



كانَ السَّيِّدُ وِكْفيلْد شَيْخًا شَهْمًا وَدودًا بالِغَ الأَناقَةِ ، ذا جِسْمٍ بَدينٍ .

صَعِدَ بنا إلى الطَّبَقَةِ العُلْوِيَّةِ لِيُعَرِّفَنا بِمُدَبِّرَةِ مَنْزِلِهِ . وعَجِبْتُ لِحَداثَةِ سِنِّها ، إِذْ كانَتْ فَتاةً حَسْناءَ مِنْ عُمْري ، تَتَحَلَّى بِهُدوءٍ وصَفاءٍ نادِرَيْنِ . إِنَّها ابْنَتُهُ أَغْنِس ، المَشْغوفَةُ بِأَبيها . والَّتي تُلَبّي كُلَّ حاجاتِهِ بِكُلِّ مَحَبَّةٍ واحْتِرامٍ .

بَعْدَ أَنْ أَنْجَزَتْ عَمَّتي ما جاءَتْ مِنْ أَجْلِهِ ، تَأَهَّبَتْ لِلعَوْدَةِ إلى دوڤر . وقَبْلَ أَنْ تَرْحَلَ أَسْدَتْ إِلَيَّ النَّصيحَةَ التّالِيَةَ : «يَجِبُ أَنْ تكونَ مَوْضِعَ فَخْرٍ ، لي ولِنَفْسِكَ . أَسْتَوْدِعُكَ اللهَ . وإِيّاكَ مِنَ القَساوَةِ والدَّناءَةِ والكَذِبِ . فَاحْذَرْ هٰذِهِ العُيوبَ الثَّلاثَةَ في كُلِّ أَفْعالِكَ . »


وتَرَكَتْني وذَهَبَتْ حَزينَةً مُنْقَبِضَةَ النَّفْسِ .


اِصْطَحَبَني السَّيِّدُ وِكْفيلْد في اليَوْمِ التّالي إلى المَدْرَسَةِ ، مُرورًا بِالكاتِدْرائِيَّةِ ، ودَخَلْنا المَدْرَسَةَ مَعًا كَيْ يُقَدِّمَني لِمُديرِها الدُّكْتورِ سترونْغ . وقَضَيْتُ ما تَبَقّى مِنْ ذٰلِكَ النَّهارِ في المَدْرَسَةِ حَيْثُ تَعَرَّفْتُ إلى بَعْضِ أَساتِذَتي وعَدَدٍ كَبيرٍ مِنْ زُمَلائي . كانَ الطُّلّابُ مِنَ الشُّبّانِ المُهَذَّبينَ الّذينَ يَعْجِزونَ عَنْ تَصَوُّرِ ما عِشْتُهُ مِنْ تَجارِبَ قاسِيَةٍ في مَدْرَسَتي السّابِقَةِ . ومِنَ البَداهَةِ القَوْلُ إِنّي لَمْ أَتَفَوَّهْ أَمامَهُمْ بِكَلِمَةٍ في هٰذا الشَّأْنِ .

كانَ الدُّكْتورُ ستروِنْغ رَجُلًا شَهْمًا ومُثَقَّفًا ، وهُوَ بَعيدٌ عَنِ السَّيِّدِ كريكل بُعْدَ السَّماءِ عَنِ الأَرْضِ . وساوَرَني شُعورٌ بِالفَرَحِ إِزاءَ انْتِقالي إلى تِلْكَ المَدْرَسَةِ .

اِنْتَهى يَوْمي الأَوَّلُ في المَدْرَسَةِ ، وعُدْتُ ، بَعْدَ الظُّهْرِ ، إلى مَنْزِلِ السَّيِّدِ وِكْفيلْد ، فَاسْتَقْبَلَتْني أَغْنِس في غُرْفَةِ الجُلوسِ ، حَيْثُ كانَتْ بِانْتِظارِ أَبيها . رُحْنا نَتَجاذَبُ أَطْرافَ الحَديثِ ، واتَّضَحَ لي أَنَّها كانَتْ مُخْلِصَةً كُلَّ الإِخْلاصِ لِوالِدِها ، مُكَرِّسَةً حَياتَها لِرِعايَتِهِ . فَطَبَعَتْ في نَفْسي صورَةً طَيِّبَةً عَنْ شَخْصِها لا يُمْكِنُ أَنْ تُمْحى .

أَيْقَنْتُ ، فيما بَعْدُ ، بِالرُّجوعِ إلى نَفْسي ، أَنّي لَمْ أَزَلْ أُحِبُّ إِميلي الصَّغيرَةَ . إِلّا أَنّي كُنْتُ أَزْدادُ تَعَلُّقًا بِأَغْنِس يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ . إِذْ لَمْ أَعْرِفْ أَحَدًا يُماثِلُها في قُدْرَتِها على إِشاعَةِ الوِئامِ والرَّأْفَةِ والمَحَبَّةِ أَيْنَما ذَهَبَتْ .





وبما أنّي كُنْتُ أُقيمُ في مَنْزِلِ السَّيِّدِ وِكْفيلْد ، كانَ لا بُدَّ لي مِنْ أَنْ أَلْتَقِيَ بأوريّا هِيب مِنْ حينٍ لِآخَرَ. وكُنْتُ كُلَّما ازْدَدْتُ بِهِ مَعْرِفَةً ازْدادَ كُرْهي لَهُ : لَمْ أَتَحمَّلْ تَمَلُّقَهُ الدَّنيءَ وتَذَلُّلَه ، فَحاوَلْتُ أَنْ أَتَجَنَّبَهُ قَدْرَ المُسْتَطاعِ .

فُوجِئْتُ يَوْمًا ، بِزيارَةِ السَّيِّدِ ميكوبر ، الّذي كُنْتُ أَحْسَبُهُ يَعْمَلُ في الجَمارِكِ في پليموث ، ولٰكِنْ يَبْدو أَنَّ خُطَطَهُ قَدْ فَشِلَتْ. كانَ في طَريقِ عَوْدَتِهِ إلى لندن ، فَقَرَّرَ أَنْ يَمُرَّ بِكانتربوري ، ونَزَلَ في فُنْدُقٍ وَضيعٍ حَيْثُ دَعاني إلى تَناوُلِ العَشاءِ مَعَهُ. وكانَتْ تِلْكَ المُناسَبَةُ نَموذَجًا عَنْ ضِيافَةِ السَّيِّدِ ميكوبر الطَّنّانَةِ. تَأَلَّفَ العَشاءُ مِنْ طَبَقٍ فاخِرٍ مِنَ السَّمَكِ فَطَبَقٍ آخَرَ مِنْ لَحْمِ البَقَرِ ، ثُمَّ المَقانِقِ ، وأَخيرًا حَجَلٍ سَمينٍ ، تَبِعَهُ قالَبُ حَلْوى غَنِيٌّ بالفاكِهَةِ وشَهِيٌّ ، فَضْلًا عَمّا واكَبَ الطَّعامَ مِنْ شَرابٍ. وبَعْدَ العَشاءِ قَدَّمَ لَنا مُضيفُنا الكَريمُ شَرابًا مِنْ صُنْعِهِ. وطَوالَ ذٰلِكَ المَساءِ ، كانَ السَّيِّدُ ميكوبر يَفيضُ فَرَحًا ، وكَذٰلِكَ زَوْجَتُهُ ، فَقَدِ اسْتَسْلَمَتْ لِلتَّفاؤُلِ والمَرَحِ . ورُحْنا نَتَغَنّى بالصَّداقَةِ الّتي لا تَفْنى .

وأَخيرًا افْتَرَقْنا وفي قُلوبِنا طُمَأْنينَةٌ وهَناءٌ.

ويُمْكِنُ تَصَوُّرُ مَدى حَيْرَتي عِنْدَما تَسَلَّمْتُ ، في السّاعَةِ السّابِعَةِ مِنْ صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، رِسالَةً مِنَ السَّيِّدِ ميكوبر ، حامِلَةً تاريخَ اللَّيْلَةِ السّابِقَةِ في السّاعَةِ الحادِيَةَ عَشْرَةَ والنِّصْفِ ، أَيْ ما لا يَتَعَدّى رُبْعَ السّاعَةِ بَعْدَ مُغادَرَتي مَنْزِلَهُ. وقَدْ جاءَ فيها ما يَلي :

يا صَديقِيَ الشّابَّ العَزيزَ ،

لَقَدْ سَبَقَ السَّيْفُ العَذَلَ ، لَقَدْ وَقَّعْتُ سَنَداتٍ وتَعَهُّداتٍ بِدَفْعِ مَبالِغَ ضَخْمَةٍ أَجِدُ نَفْسي عاجِزًا عَنْ تَسْديدِها . سَتَكونُ النَّتيجَةُ وَخيمَةً. أَتَمَنّى أَنْ تَكونَ مِحْنَتي القاسِيَةُ بِمَثابَةِ دَرْسٍ مُفيدٍ لَكَ . لَقَدْ أَشْرَفْتُ عَلى النِّهايَةِ . وهٰذِهِ آخِرُ رِسالَةٍ تَتَبَلَّغُها مِنّي يا عَزيزي كوپرفيلْد .

مِنَ المُفْلِسِ المَنْبوذِ
وِلكِنْز ميكوبر

وحينما قَرَأْتُ هٰذِهِ الرِّسالَةَ المَشْؤومَةَ ، أَسْرَعْتُ إلى الفُنْدُقِ حَيْثُ كانَ يُقيمُ سَعْيًا لِمُؤاساتِهِ. وما إنْ بَلَغْتُ مُنْتَصَفَ الطَّريقِ حَتّى وَقَعَ نَظَري على العَرَبَةِ المُتَّجِهَةِ إلى لندن وفيها السَّيِّدُ ميكوبر وزَوْجَتُهُ. وبَدا لي صَديقي المُفْلِسُ نَموذَجًا مُجَسَّدًا عَنِ المُتْعَةِ والطُّمَأْنينَةِ ، وهُوَ يَبْتَسِمُ لِزَوْجَتِهِ الّتي تُحادِثُهُ وهُما يَأْكُلانِ ثِمارَ البُنْدُقِ. ولَمَحْتُ رَأْسَ

زُجاجَةِ شَرابٍ خارِجًا مِنْ جَيْبِ سُتْرَتِهِ. فَآثَرْتُ أَنْ أَنْسَحِبَ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُعْلِنَ حُضوري وسَلَكْتُ شارِعًا فَرْعِيًّا قاصِدًا مَدْرَسَتي.

وتَلاحَقَتِ الأَيّامُ في مَدْرَسَةِ كانتربوري سَريعَةً ، وبِفَضْلِ تَوْجيهِ الدُّكْتورِ سترونغ وزُمَلائِهِ أَحْرَزْتُ تَقَدُّمًا لا يُسْتَهانُ بِهِ آلَ بي إلى التَّمَيُّزِ فَأَصْبَحْتُ في مُقَدِّمَةِ تَلاميذِ المَدْرَسَةِ. وطَوالَ تِلْكَ السَّنَواتِ لَمْ تَتَزَعْزَعْ مَحَبَّتي لِأَغْنِس ، كَما زَيَّنَ لي خَيالي الحالِمُ أَنّني ما زِلْتُ مُغْرَمًا بإميلي الصَّغيرَةِ ، وإنْ لَمْ أَعُدْ أَراها إلّا نادِرًا في تِلْكَ الأَيّامِ.

وحانَ الوَقْتُ أَخيرًا لِمُغادَرَةِ المَدْرَسَةِ ، فَوَدَّعْتُ الدُّكْتور سترونغ الَّذي اسْتَحَقَّ كُلَّ تَقْديري وَداعًا تَرَكَ أَثَرَهُ في نَفْسي. ثُمَّ تَأَهَّبْتُ نَفْسِيًّا ، وتَوَجَّهْتُ لِوَداعٍ مَأْساوِيٍّ لِلسَّيِّدِ وِكْفيلْد وأَغْنِس. فَمَهْما انْقَلَبَ مَجْرى حَياتي لَمْ أَكُنْ لِأَنْسى قُدْرَةَ أَغْنِس على نَشْرِ السُّكونِ والطُّمَأْنينَةِ مِنْ حَوْلِها.

قَصَدْتُ عَمَّتي بِتْسي ، فَوَجَدْتُها فَريسَةً لِلحَيْرَةِ والقَلَقِ على مُسْتَقْبَلي خُصوصًا بَعْدَ أَنْ تَرَكْتُ المَدْرَسَةَ. وناقَشْنا مَعًا شَتّى الإِمْكانِيّاتِ ، لٰكِنَّ عَمَّتي رَأَتْ أَنْ أَذْهَبَ أَوَّلًا في عُطْلَةٍ إلى يارْموث لِزِيارَةِ أَصْدِقائي القُدَماءِ ، وأَثارَتْني فِكْرَةُ الالْتِقاءِ مِنْ جَديدٍ بِأَصْدِقائي : مُرَبِّيَتي العَزيزَةِ والسَّيِّدِ بيغوتي وهام وإميلي الصَّغيرَةِ. فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ رَكِبْتُ عَرَبَةً واتَّجَهْتُ نَحْوَ لندن في طَريقي إلى يارْموث.

وبِصُدْفَةٍ عَجيبَةٍ الْتَقَيْتُ بِصَديقي القَديمِ ستيرفورث بَطَلِ طُفولَتي ، في الفُنْدُقِ بِلندن. ولَمْ أَكُنْ قَدِ الْتَقَيْتُهُ كَثيرًا في السَّنَواتِ الأَخيرَةِ. وما إنْ عَلِمَ بِغايَةِ سَفَري حَتّى فاجَأَني بِقَوْلِهِ إِنَّهُ يَرْغَبُ بِمُرافَقَتي. وفي اليَوْمِ التّالي اسْتَأْجَرْنا عَرَبَةً نَقَلَتْنا إلى يارْموث.

بَلَغْنا يارْموث عَصْرًا ، فَحَجَزْنا غُرْفَتَيْنِ في أَحَدِ الفَنادِقِ. ثُمَّ قُمْتُ بِزِيارَةِ بَعْضِ الأَصْدِقاءِ قَبْلَ زِيارَةِ آلِ بيغوتي. وأَزْعَجَني ما سَمِعْتُهُ مِنْ أَقْوالٍ نَمّامَةٍ وخَبيثَةٍ بِأَنَّ إميلي الصَّغيرَةَ كانَتْ تُبْعِدُ نَفْسَها عَنْ شُبّانِ المِنْطَقَةِ تَكَبُّرًا.

قَصَدْتُ مَنْزِلَ عَزيزَتي بيغوتي ، الّتي ذَرَفَتْ دُموعَ الفَرَحِ لِرُؤْيَتي مِنْ جَديدٍ . وقالَتْ وهِيَ تَضُمُّني إلى صَدْرِها بِشِدَّةٍ : «يا عَزيزي ديڤي ! باركيس المِسْكينُ لَيْسَ عَلى ما يُرامُ ، لٰكِنَّهُ سَيَسْعَدُ بِرُؤْيَتِكَ .»

وبِالفِعْلِ دَخَلْتُ عَلى باركيس ، فَوَجَدْتُهُ مَريضًا طَريحَ الفِراشِ . إلّا أَنَّهُ رَحَّبَ بي بِبَشاشَةٍ ، ورُحْنا نَتَذَكَّرُ الأَيّامَ الغابِرَةَ . بَعْدَ قَليلٍ ، لَحِقَ بي ستيرْفورْث ، بِحَسَبِ اتِّفاقِنا ، وانْطَلَقْنا مَعًا إلى بَيْتِ السَّيِّدِ بيغوتي .

وما إنْ دُسْنا عَتَبَةَ ذٰلِكَ المَنْزِلِ ، الّذي باتَ مَأْلوفًا لي ، حَتّى رَحَّبَ بِنا أَهْلُهُ أَحَرَّ تَرْحيبٍ . وأَبْدى ستيرْفورْث لَطافَةً أَكْسَبَتْهُ مَوَدَّةَ العائِلَةِ بِأَسْرِها . ولَوْ قالَ لي أَحَدُهُمْ إنَّهُ كانَ يُمَثِّلُ دَوْرًا وإنَّهُ لَمْ يَرَ في تِلْكَ المُناسَبَةِ إلّا فُرْصَةً لِيُشْبِعَ غُرورَهُ الطّائِشَ ، ما كُنْتُ لِأُصَدِّقَهُ . ويا لَلصَّدْمَةِ المُفْجِعَةِ الّتي كانَتْ تَنْتَظِرُني !

أَمّا حُبّي الأَوَّلُ ، إميلي الصَّغيرَةُ ، فَقَدْ غَدَتْ صَبِيَّةً جَميلَةً . وقَدْ لَفَتَتْها وَسامَةُ ستيرْفورْث وأَناقَتُهُ ، فَأَخَذَتْ تَتَجَنَّبُ هام بِحُضورِهِ ، مُتَغاضِيَةً عَنْ كَوْنِهِ الزَّوْجَ المُنْتَظَرَ بِرَأْيِ الجَميعِ .

كانَتِ السّاعَةُ عَلى وَشْكِ أَنْ تَدُقَّ الثّانِيَةَ عَشْرَةَ عِنْدَما غادَرْنا . وفي طَريقِنا إلى الفُنْدُقِ ضَحِكَ ستيرْفورْث وقالَ : «يا لَها مِنْ أُمْسِيَةٍ مُسَلِّيَةٍ . لٰكِنّي واثِقٌ مِنْ أَنَّ الصَّغيرَةَ إميلي طَبَقٌ أَفْخَرُ مِنْ أَنْ يَلْتَهِمَهُ ذٰلِكَ الصَّيّادُ المُغَفَّلُ ، هام !» وأَثارَتْ مُلاحَظَتُهُ تِلْكَ قَلَقي وانْزِعاجي .

مَكَثْنا في مِنْطَقَةِ يارْموث مُدَّةَ أُسْبوعَيْنِ . وقَدْ أَمْضى ستيرْفورْث مُعْظَمَ وَقْتِهِ مُبْحِرًا في مَرْكَبِ السَّيِّدِ بيغوتي مُتَحَمِّلًا أَسْوَأَ حالاتِ الطَّقْسِ وكَأَنَّهُ مَلّاحٌ مُنْذُ صِغَرِهِ . وشُغِفَ بِالبَحْرِ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ ابْتاعَ مَرْكَبًا اسْمُهُ «الطّائِرُ البَحْرِيّ» إلّا أَنَّهُ حَوَّلَهُ رَأْسًا إلى اسْمٍ آخَرَ : «إميلي الصَّغيرَة» . وقَدْ ساعَدَهُ السَّيِّدُ بيغوتي في طَلْيِ المَرْكَبِ وفَحْصِهِ بِعِنايَةٍ ، ووَعَدَهُ بِأَنْ يَعْتَنِيَ بِهِ أَثْناءَ غِيابِهِ .

عَشِيَّةَ رَحيلِنا ، بَيْنَما كُنْتُ مَعَ ستيرْفورْث وهام وإميلي في بَيْتِ السَّيِّدِ بيغوتي ، حَدَثَ

شَيْءٌ غَريبٌ . فَقَدْ أَجْهَشَتْ إميلي بِالبُكاءِ فَجْأَةً وقالَتْ : «لَسْتُ أَبَدًا الفَتاةَ العاقِلَةَ الّتي تَظُنُّها ، يا هام .» وتَمادَتْ في البُكاءِ حَتّى بَدَتْ عَلى وَشْكِ الانْهِيارِ . وأَرْدَفَتْ قائِلَةً : «يا هام ، إنَّني أَقْسو عَلى حُبِّكَ كَثيرًا . كانَ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تَقَعَ في حُبِّ فَتاةٍ أُخْرى تَكونُ جَديرَةً بِحُبِّكَ .»

وما لَبِثَ عَمُّها السَّيِّدُ بيغوتي أَنْ هَدَّأَها . واطْمَأَنَّ قَلْبي لِرُؤْيَتِها تَعودُ وتَضُمُّ إلَيْها هام المُخْلِصَ بَعْدَ أَنِ اسْتَعادَتْ هُدوءَها .



في صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، بَيْنَما كُنْتُ أَتَهَيَّأُ وستيرْفورْث للرَّحيلِ إلى لَنْدن ، تَجَمَّعَ أَصْدِقاؤُنا جَميعًا ووَدَّعونا وَداعًا حارًّا .

اِفْتَرَقْنا أَنا وستيرْفورْث في لَنْدن ، فَرَكِبْتُ العَرَبَةَ المُتَوَجِّهَةَ إلى دوڤر لِأَزورَ العَمَّةَ بِتْسي .

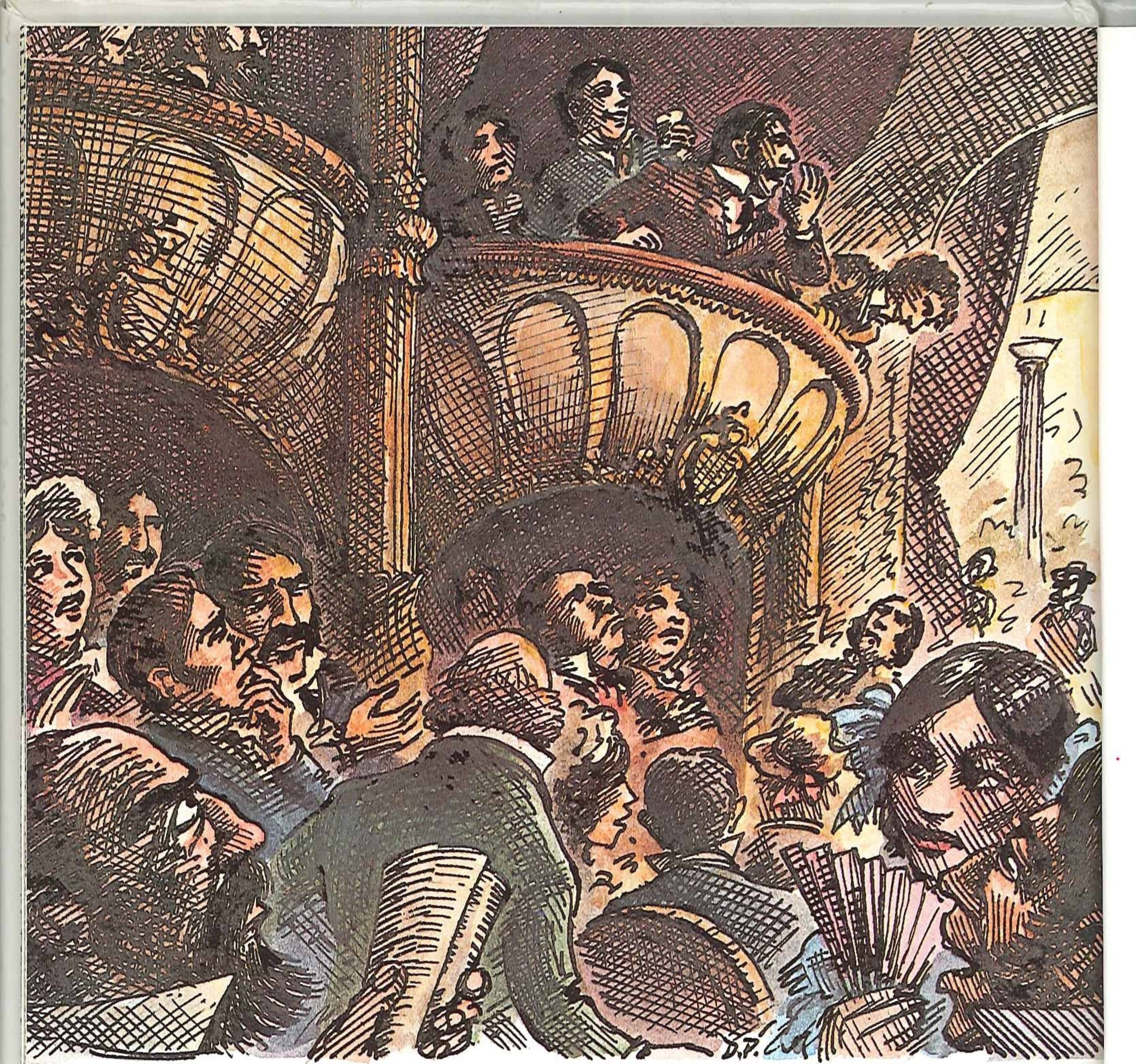
وبَعْدَ أَنْ رَحَّبَتْ بي قالَتْ : «كُنْتُ أُفَكِّرُ ، يا تروت ، بِعَمَلٍ لَكَ – وقَدْ وَجَدْتُ المِهْنَةَ الَّتي تُناسِبُكَ تَمامًا ، وهِيَ مِهْنَةٌ فَريدَةٌ وتُبَشِّرُ بِمُسْتَقْبَلٍ زاهِرٍ . سَتَكونُ كاتِبًا تَحْتَ التَّمْرينِ عِنْدَ أَشْهَرِ المُحامين .»

فَقُلْتُ لَها : «حَسَنًا ، ولٰكِنَّ المُشْكِلَةَ الوَحيدَةَ تَتَعَلَّقُ بِدَفْعِ مَبْلَغٍ كَبيرٍ مِنَ المالِ لِقاءَ عَقْدِ التَّمْرين .»

أَجابَتْ بِتْسي بِنَبْرَةٍ حاسِمَةٍ : «هٰذا يَتَطَلَّبُ أَلْفَ جُنَيْهٍ فَقَطْ ، ويُسْعِدُني جِدًّا أَنْ أَدْفَعَها ، فَأَنْتَ سَبَبُ سَعادَتي ومَوْضِعُ فَخْري واعْتِزازي ، ولَيْسَ لي ، في هٰذِهِ الدُّنْيا ما يَسْتَحِقُّ اهْتِمامي سِواكَ خُصوصًا وأَنَّكَ ابْني بالتَّبَنّي .»

وهٰكَذا ذَهَبْنا ، أَنا وعَمَّتي ، في صَباحِ اليَوْمِ التّالي إلى لَنْدن ، وكُلُّنا حَماسٌ واندِفاعٌ . رافَقَتْني العَمَّةُ بِتْسي إلى مَكْتَبِ الأُسْتاذَيْنِ سِبِنْلو وجوركنْز في مَبْنًى كَبيرٍ بالقُرْبِ مِنْ كَنيسَةِ «سانْت بول» . وقَدْ عُيِّنْتُ كاتِبًا مُتَمَرِّنًا تَحْتَ إشْرافِ المُحامي الأُسْتاذِ سِبِنْلو نَفْسِهِ . ولَمْ تَكْتَفِ عَمَّتي بِهٰذا ، بَلِ اسْتَأْجَرَتْ لي شَقَّةً أَنيقَةً في شارِعِ بكنغهام ، تُطِلُّ عَلى نَهْرِ التّيمز ، تَحْتَ إدارَةِ السَّيِّدَةِ كراب . وهُنا باشَرْتُ حَياتي المِهْنِيَّةَ في ظُروفٍ مُريحَةٍ وبِدَعْمٍ مالِيٍّ مِنْ عَمَّتي .

بالرَّغْمِ مِنِ اسْتِقْراري في شَقَّتي الجَديدَةِ ، وتَجْديدِ اتِّصالي بِبَعْضِ زُمَلائي مِنْ أَيّامِ المَدْرَسَةِ ، إلّا أَنّني كُنْتُ أَشْعُرُ بالوَحْدَةِ مِنْ حينٍ لِآخَرَ . فَعِنْدَما فاجَأَني ستيرْفورْث بِمَجيئِهِ ، ذاتَ صَباحٍ أَثْناءَ الفُطورِ ، أَثْلَجَ قَلْبي . فاتَّفَقْنا عَلى أَنْ نَلْتَقِيَ مِرارًا . وبَعْدَ مُرورِ بِضْعَةِ أَيّامٍ ، دَعَوْتُهُ إلى العَشاءِ في شَقَّتي هُوَ واثْنَيْنِ مِنْ أَصْدِقائِهِ . وتَحَوَّلَ هٰذا العَشاءُ إلى



لِقاءٍ لَنْ أَنْساهُ أَبَدًا وفاجَأَتْنا السَّيِّدَةُ كراب بِمَهارَتِها في الطَّبْخِ واحْتَفَلْنا بالمُناسَبَةِ بِتَناوُلِ الأَنْخابِ مِرارًا وتَكْرارًا .

عِنْدَ انْتِهاءِ العَشاءِ ، وكُنْتُ قَدْ بَدَأْتُ أَتَرَنَّحُ وأَتَمايَلُ ، اقْتَرَحَ أَحَدُنا الذَّهابَ لِمُشاهَدَةِ مَسْرَحِيَّةٍ تُعْرَضُ في مَسْرَحِ «كوڤنت غاردن» . أَلْقَى بي أَصْدِقائي في العَرَبَةِ ، وما أَذْكُرُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنّني كُنْتُ جالِسًا في مَقْصورَةٍ في المَسْرَحِ أُحَدِّقُ إلى الأَسْفَلِ حَيْثُ بَدا لي المَشْهَدُ المَسْرَحِيُّ وكَأَنَّهُ يَسْبَحُ في الضَّبابِ . ويَبْدو أَنَّني كُنْتُ أُصَفِّقُ مُحْدِثًا ضَجَّةً لَفَتَتْ إلَيَّ الأَنْظارَ وسَبَّبَتْ لي تَأْنيبًا مِنَ الجالِسينَ حَوْلي .

في وَقْتِ الاسْتِراحَةِ، نَزَلْنا الدَّرَجَ، بِخُطًى مُتَمايِلَةٍ، إلى المَقصوراتِ في الطّابِقِ الأَدْنى، حَيْثُ فوجِئْتُ بِرُؤْيَةِ أَغْنِس وِكفيلْد بِنَفْسِها، جالِسَةً بِرِفْقَةِ بَعْضِ أَصْدِقائِها. أَفاقَتْني الصَّدْمَةُ قَليلاً فَأَحْسَسْتُ بِالخَجَلِ لِلظُّهورِ بِحالَةٍ كَهٰذِهِ أَمامَ تِلْكَ الشّابَّةِ الّتي أُكِنُّ لَها مِنَ الاحْتِرامِ والإعْجابِ ما لا أُكِنُّهُ لِأَحَدٍ سِواها.

ولٰكِنَّ عَزيزَتي أَغْنِس لَمْ تُؤَنِّبْني، بَلْ أَشارَتْ عَلَيَّ، بِلُطْفٍ، أَنْ أَطْلُبَ مِنْ أَصْدِقائي مُرافَقَتي إلى مَنْزِلي في الحالِ. ولا أَكادُ أَذْكُرُ شَيْئًا مِنْ سائِرِ أَحْداثِ تِلْكَ الأُمْسِيَةِ، لٰكِنّي أَتَصَوَّرُ أَنّي أُعِدْتُ إلى مَنْزِلي ووُضِعْتُ في فِراشي.

كانَ اليَوْمُ التّالي يَوْمَ حُزْنٍ وتَحَسُّرٍ وأَلَمٍ. فَخَجِلْتُ مِنْ نَفْسي، ونَدِمْتُ على ما سَبَّبْتُهُ لِلمِسْكينَةِ أَغْنِس مِنْ قَلَقٍ، وظَلَّ الشُّعورُ بِالخَجَلِ مُسَيْطِرًا عَلَيَّ أَكْثَرَ مِنْ أُسْبوعٍ. ثُمَّ وَصَلَتْني رِسالَةٌ مِنْ أَغْنِس تَقولُ فيها إنَّها قادِمَةٌ وأَباها إلى لَنْدن لِقَضاءِ فَتْرَةٍ وَجيزَةٍ مِنَ الوَقْتِ، وتَدْعوني لِزِيارَتِهِما مَساءَ الثُّلاثاءِ التّالي.

كانَتْ فَرْحَتي فائِقَةً بِرُؤْيَةِ مَلاكي الوَديعِ أَغْنِس مِنْ جَديدٍ. كانَ حَديثُها رائِعًا، وقَدِ اسْتَطاعَتْ إزالَةَ مَخاوِفي وشُكوكي بِمُجَرَّدِ وُجودِها بِقُرْبي. أَمْسَكْتُ بِيَدِها وقُلْتُ لَها مُنْفَعِلاً: «يا أَغْنِس، أَنْتِ ما زِلْتِ مَلاكي الحارِسَ.» فَابْتَسَمَتْ لي وقالَتْ: «إنْ كانَ ذٰلِكَ صَحيحًا فَأُريدُ فَقَطْ أَنْ أُحَذِّرَكَ يا تروتوود مِنْ مَلاكِكَ الطّائِشِ.»

قُلْتُ مُسْتَفْهِمًا: «يا عَزيزَتي أَغْنِس، هَلْ تَعْنينَ ستيرفورث؟»


– أَجَلْ، هُوَ بِالضَّبْطِ مَنْ أَعْنيهِ.

– لا يا أَغْنِس! إنَّكِ تَظْلِمينَهُ!

– لا أَعْتَقِدُ أَنّني أَظْلِمُهُ، فَالأَدِلَّةُ الّتي تَدْعَمُ رَأْيي كَثيرَةٌ.

لَمْ نُكْمِلِ الحَديثَ حَوْلَ هٰذا المَوْضوعِ، بَلِ انْتَقَلْنا إلى مَواضيعَ أُخْرى. أَخْبَرَتْني، والقَلَقُ ظاهِرٌ على مُحَيّاها، أَنَّ أوريّا هيب قَدْ أَحْكَمَ سَيْطَرَتَهُ على والِدِها بِطَريقَةٍ أَوْ بِأُخْرى، وأَقْنَعَهُ بِجَعْلِهِ شَريكًا لَهُ في المُؤَسَّسَةِ. فَسَأَلْتُها مُنْفَعِلاً: «حَقًّا؟ هَلْ حَصَلَ هٰذا المُتَزَلِّفُ الخَسيسُ على ذٰلِكَ بِتَمَلُّقِهِ وخِداعِهِ؟» فَأَجابَتْ أَغْنِس وعَيْناها دامِعَتانِ: «أَجَلْ. إنَّهُ داهِيَةٌ ماكِرٌ. فَلا أَعْرِفُ كَيْفَ تَوَصَّلَ إلى جَعْلِ والِدي يَخافُهُ ويَهابُهُ. أَمّا في الوَقْتِ الحاضِرِ فَأَتَوَسَّلُ إلَيْكَ أَنْ تَتَصَرَّفَ مَعَهُ على نَحْوٍ وُدِّيٍّ. فَكِّرْ بي وبِوالِدي.»





بَذَلْتُ كُلَّ ما بِوُسْعي لِإرْضاءِ أَغْنِس. وإظْهارًا لِحُسْنِ نِيَّتي، دَعَوْتُ أوريّا ذاتَ مَساءٍ إلى تناوُلِ القَهْوَةِ في شَقَّتي وقَضاءِ لَيْلَتِهِ عِنْدي، قَبْلَ أَنْ يَعودَ وعائِلَةَ وِكْفيلْد إلى كانتِرْبوري. وكانَتْ تِلْكَ أَسْوَأَ سَهْرَةٍ قَضَيْتُها في حَياتي. وبَلَغَ انْزِعاجي مَبْلَغَهُ عِنْدَما تَفَوَّهَ بِهٰذا الكَلام: «يَجِبُ أَنْ أَعْتَرِفَ لَكَ يا سَيِّدُ كوپرفيلْد، أَنَّني، بِشَخْصي المُتَواضِعِ، أُكِنُّ لِأَغْنِس مَحَبَّةً خالِصَةً، بَلْ إنّي أَعْبُدُ الأَرْضَ الّتي تَمْشي عَلَيْها!»

وكَلَّفَني الاحْتِفاظُ بِرَباطَةِ جَأْشي جُهْدًا كَبيرًا. فَأَرْدَفَ قائِلًا: «إنَّها تُجِلُّ أَباها، فَآمُلُ أَنْ تُلاطِفَني إكْرامًا لَهُ.»

لَقَدْ أَفْصَحَ اللَّئيمُ عَنْ خُطَّتِهِ بِكُلِّ وَقاحَةٍ: كانَ عازِمًا على الفَوْزِ بِالشَّرِكَةِ وبِيَدِ أَغْنِس أَيْضًا! وفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي سَعَيْتُ إلى التَّخَلُّصِ مِنْهُ باكِرًا.

دَعاني رَبُّ عَمَلي السَّيِّدُ سِپِنلو، في الصَّيْفِ، إلى مَنْزِلِهِ الرّيفِيِّ، لِقَضاءِ عُطْلَةِ نِهايَةِ الأُسْبوعِ. وهُناكَ الْتَقَيْتُ بِفُرْصَةِ عُمْري في شَخْصِ ابْنَتِهِ دورا التي خَلَبَتْ لُبّي بِجَمالِها. وأَدْرَكْتُ على الفَوْرِ أَنَّها حُبُّ العُمْرِ. فَالنُّزْهَةُ في الحَديقَةِ بِرِفْقَتِها كانَت بِالنِّسْبَةِ لي نُزْهَةً في النَّعيمِ. بَعْدَ ذٰلِكَ، عِشْتُ مَذْهولًا مُدَّةَ أَسابيعَ حَتّى أَرْسَلَتْ لي العِنايَةُ الإلٰهِيَّةُ صَديقي العَزيزَ ترادِلْز وعائِلَةَ ميكوبر، فَصَرَفْتُ ذِهْني قَليلًا عَنْ ذٰلِكَ الحُبِّ الجارِفِ.

كانَ السَّيِّدُ ميكوبر، كَعادَتِهِ، في حالَةٍ صَعْبَةٍ جِدًّا. فَما فَتِئَ دائِنوهُ يُنْهِكونَهُ بِهَجَماتِهِمِ المُتَكَرِّرَةِ، وباتَ لا يَمْلِكُ ما يُعيلُ بِهِ أُسْرَتَهُ.

غَيْرَ أَنَّ مِزاجَهُ تَبَدَّلَ واسْتَحالَ يَأْسُهُ فَرَحًا عِنْدَما رَحَّبَ بِنا لاحِقًا في بَيْتِهِ المُتَواضِعِ، وانْكَبَّ على تَحْضيرِ شَرابٍ خاصٍّ لِلاحْتِفالِ بِاجْتِماعِنا. فَلَمْ أَلْتَقِ قَطُّ بِشَخْصٍ يَفْرَحُ مِثْلَهُ ويَنْتَشِلُ نَفْسَهُ مِنْ هُمومِهِ عِنْدَما يُرَحِّبُ بِأَحِبّائِهِ ويَقومُ بِواجِبِ الضِّيافَةِ نَحْوَهُمْ. أَمّا السَّيِّدَةُ ميكوبر فَشاطَرَتْهُ مَرَحَهُ لِأَنَّها كانَتْ واثِقَةً تَمامًا مِنْ قُدُراتِ زَوْجِها ومُقْتَنِعَةً بِأَنَّ العالَمَ سَيُفيدُ يَوْمًا مِنْ مَواهِبِهِ النّادِرَةِ.

وأَخيرًا ذَهَبْنا عِنْدَ الحادِيَةَ عَشْرَةَ. وقَبْلَ أَنْ أَتْرُكَ صَديقي الكَريمَ ترادِلْز حَذَّرْتُهُ مِنْ إقْراضِ السَّيِّدِ ميكوبر، مَهْما عَرَضَ عَلَيْهِ هٰذا الأَخيرُ مِنْ وُعودٍ وسَنَداتٍ.

عِنْدَما بَلَغْتُ شِقَّتي ، وَجَدْتُ ستيرفورث بِانْتِظاري ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ تَأَخُّرِ السّاعَةِ ، فَهَتَفْتُ : «يا لَها مِنْ مُفاجَأَةٍ ! حَسِبْتُ أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ في أوكسفورد .»

فَقالَ : «لا . إنّي قادِمٌ لِلتَّوِّ مِنْ يارموث حَيْثُ كُنْتُ أَقومُ بِرِحْلاتٍ بَحْرِيَّةٍ في مَرْكَبي . إنَّ باركيس المِسْكينَ في حالَةٍ يُرْثى لَها ، ويَبْدو أَنَّهُ في أَيّامِهِ الأَخيرَةِ .» ثُمَّ تَحَدَّثْنا قليلاً ، وقَبْلَ أَنْ يُغادِرَ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلى كَتِفَيَّ قائِلاً : «إذا فَرَّقَتْ بَيْنَنا الأَيّامُ ، يا كوپرفيلد ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ جانِبي المُشْرِقَ .» وأَرْبَكَني كَلامُهُ فَقُلْتُ : «ولٰكِنّي دائماً أَنْظُرُ إِلَيْكَ هٰكذا !» فَأَجابَ : «بارَكَ اللهُ فيكَ ، وطابَتْ لَيْلَتُكَ !»

اِسْتَأْذَنْتُ السَّيِّدَ سپنلو لِلحُصولِ عَلى إجازَةٍ قَصيرَةٍ لِلذَّهابِ إلى يارموث . وتَأَثَّرَتْ پيغوتي بِرُؤْيَتي وضَمَّتْني إلى صَدْرِها باكِيَةً وشَكَرَتْني عَلى مُؤاساتِها .

ثُمَّ قادَتْني إلى غُرْفَةِ باركيس . وتَبَيَّنَ لي أَنَّهُ – لِلأَسَفِ – قَدْ أَشْرَفَ عَلى الهَلاكِ . سَأَلَتْهُ پيغوتي : «ها قَدْ أَتى السَّيِّدُ ديڤيد . أَلَنْ تُكَلِّمَهُ يا حَبيبي ؟»

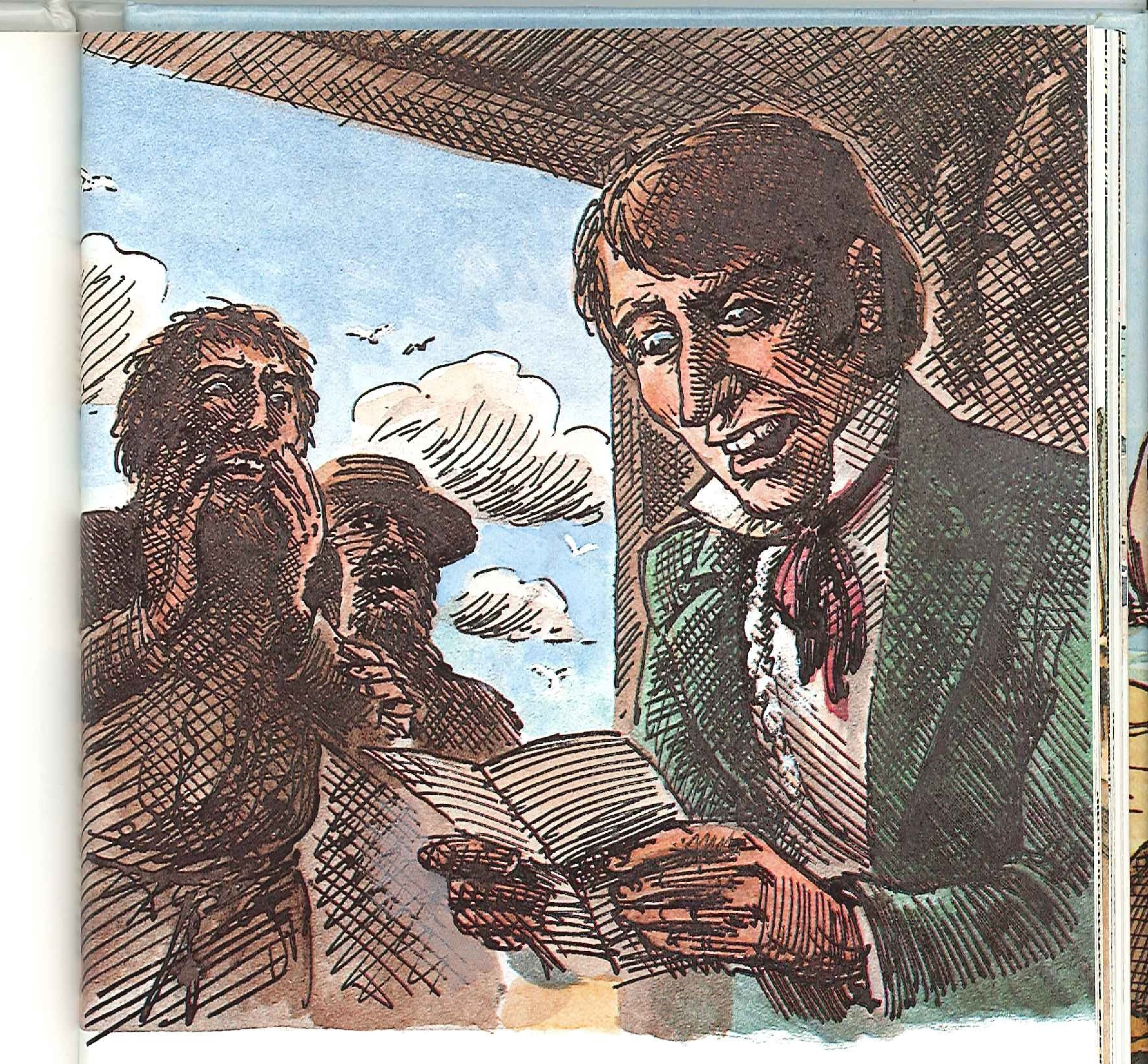
إلّا أَنَّ باركيس المِسْكينَ لَمْ يُحَرِّكْ ساكِناً لِأَنَّهُ كانَ عاجِزاً عَنِ الكَلامِ والحَرَكَةِ . فَبَدا وكَأَنَّ الحَياةَ تُفارِقُهُ شَيْئاً فَشَيْئاً عَلى غِرارِ مِياهِ البَحْرِ الَّتي تَنْسَحِبُ مِنَ الشّاطِئِ عِنْدَ الجَزْرِ . وفَجْأَةً أَخَذَ يُتَمْتِمُ كَلاماً غَيْرَ مُتَّسِقٍ ثُمَّ ابْتَسَمَ وهَمَسَ : «باركيس راغِبٌ حَقّاً .» وكانَتْ تِلْكَ كَلِماتِهِ الأَخيرَةَ .

بَعْدَ الجَنازَةِ ، أَخَذْتُ پيغوتي إلى مَنْزِلِ أَخيها عَلى شاطِئِ البَحْرِ حَيْثُ أُحيطَتْ بِمَحَبَّةٍ وعَطْفٍ ساعَداها عَلى تَحَمُّلِ فاجِعَتِها . وعِنْدَ الغَسَقِ جاءَ هام إلى المَنْزِلِ ، ولَمّا رَآني قالَ : «يا سَيِّدُ ديڤيد ، هَلّا خَرَجْتَ مَعي لَحْظَةً ؟» ، وكانَ مَشْدودَ الأَعْصابِ وشاحِبَ اللَّوْنِ كَأَنَّهُ شَبَحٌ . ما إنْ خَرَجْنا مِنَ البَيْتِ حَتّى خارَتْ قُواهُ وقالَ وهُوَ يَنْشِجُ : «إميلي قَدْ رَحَلَتْ ... عَزيزَتي الصَّغيرَةُ إميلي رَحَلَتْ !»

فَسَأَلْتُهُ مُتَعَجِّباً : «تَقولُ إنها رَحَلَتْ ؟»

فَأَجابَ : «أَجَلْ . لَقَدْ فَرَّتْ مِنَ البَيْتِ وتَرَكَتْ هٰذِهِ الرِّسالَةَ .»





دَخَلْتُ البَيْتَ ورُحْتُ أَقْرَأُ الرِّسالَةَ. وقَدْ جاءَ فيها ما يَلي :

«أنا أَعْلَمُ أَنَّكَ تُحِبُّني كَثيرًا. عِنْدَما تَقْرَأُ هٰذِهِ الرِّسالَةَ سَأَكونُ بَعيدَةً، ولَنْ أَعودَ إلّا إذا أَعادَني هُوَ بِصِفَتي سَيِّدَةً مُحْتَرَمَةً. بَلِّغْ خالي أَنّي ما أَحْبَبْتُهُ قَطُّ مِثْلَما أُحِبُّهُ اليَوْمَ. بارَكَكُمُ اللهُ جَميعًا : سَأُصَلّي مِنْ أَجْلِكُمْ.»

كانَ وَقْعُ الرِّسالَةِ عَلَيْنا كالصّاعِقَةِ.

وسَأَلَ السَّيِّدُ بِيغوتي بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ : «مَنْ هُوَ الرَّجُلُ؟» فَقالَ هام والدُّموعُ تَكادُ تَخْنُقُهُ : «إِنَّهُ صَديقُكَ ستيرْفورْث يا سَيِّدُ ديفيد، لٰكِنَّني لا أَلومُكَ !»

وتَناوَلَ العَمُّ بِيغوتي قُبَّعَتَهُ وقالَ : «سَأَبْحَثُ عَنْ إميلي، ولٰكِنْ قَبْلَ ذٰلِكَ، سَأُحَطِّمُ مَرْكَبَهُ. سَأَجولُ الأَرْضَ بَحْثًا عَنْها، إذا لَزِمَ الأَمْرُ ! آه ! يا صَغيرَتي إميلي !» وخَرَجَ وَحْدَهُ في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ.

في صَباحِ اليَوْمِ التّالي، الْتَقَيْتُ بِالسَّيِّدِ بِيغوتي وأُخْتِهِ عَلى الشّاطِئِ. كانَ قَدِ اتَّخَذَ قَرارًا حاسِمًا، بَعْدَ أَنْ تَشاوَرَ وأُخْتَهُ طَوالَ اللَّيْلِ ؛ فَظَهَرَتْ عَلاماتُ العَزْمِ عَلى مُحَيّاهُ. قالَ : «لَمْ يَعُدْ لي مِنْ عَمَلٍ في البَيْتِ. ومِنَ الآنَ فَصاعِدًا باتَ واجِبي أَنْ أَبْحَثَ عَنْها.»

وعِنْدَما سَأَلْتُهُ أَيْنَ سَيَبْحَثُ عَنْها هَزَّ بِرَأْسِهِ تَعْبيرًا عَنْ حَيْرَتِهِ، لٰكِنَّهُ قالَ لي : «لَقَدْ خَطَرَ بِبالي أَنْ أُرافِقَكَ إلى لندن في الغَدِ. ما رَأْيُكَ يا سَيِّدُ ديفي؟»

لَقَدْ سَرَّني أَنْ أُساعِدَ صَديقي وأُواسِيَهُ في مِحْنَتِهِ، فَانْطَلَقْنا مَعًا في الصَّباحِ. وعِنْدَما بَلَغْنا لندن بَدا لي أَهْدَأَ بِكَثيرٍ وأَصَرَّ عَلى البَدْءِ بِإِجْراءِ أَبْحاثِهِ بِمُفْرَدِهِ. ثُمَّ أَمْسَكَ بِيَدي وقالَ : «مَهْما حَصَلَ، يَجِبُ أَنْ تَعْرِفَ إميلي أَنَّ شُعوري تِجاهَها لَمْ يَتَبَدَّلْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَها. كُلُّ ما أُريدُهُ هُوَ أَنْ تَعودَ إلى البَيْتِ.»

واسْتَوْلَتْ تِلْكَ الحَوادِثُ المَريرَةُ عَلى أَفْكاري لِمُدَّةِ أَسابيعَ. إلّا أَنَّ الحَياةَ ما لَبِثَتْ أَنْ عادَتْ إلى مَجْراها الطَّبيعِيِّ. كانَ حُبّي لِدورا يَزْدادُ ويَعْمُقُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وبَلَغَ فَرَحي ذُرْوَتَهُ عِنْدَما دَعاني السَّيِّدُ سِبِنْلو إلى حَفْلَةِ عيدِ ميلادِها. وتَعَرَّفْتُ بِالمُناسَبَةِ إلى صَديقَةِ دورا الحَميمَةِ جوليا ميلز الَّتي أَخْبَرَتْني أَنَّ دورا كانَتْ سَتَمْكُثُ عِنْدَها مُدَّةَ أُسْبوعٍ. ودَعَتْني لِزِيارَتِها كَيْ أَتَمَكَّنَ مِنْ قَضاءِ بَعْضِ الوَقْتِ مَعَ دورا. فَما كِدْتُ أُصَدِّقُ أُذُنَيَّ لِشِدَّةِ فَرَحي، ورُحْتُ أَزورُها يَوْمِيًّا.

وقَبْلَ نِهايَةِ الأُسْبوعِ، تَسَلَّحْتُ بِكُلِّ شَجاعَتي، وطَلَبْتُ يَدَ جَميلَتي دورا، وأَخْبَرْتُها أَنّي لا أُطيقُ العَيْشَ مِنْ دونِها. وافَقَتْ دورا عَلى عَرْضي بِسُرورٍ بالِغٍ، واتَّفَقْنا – سِرًّا – عَلى الزَّواجِ. فَغَمَرَني الفَرَحُ العارِمُ.

عِنْدَما بَلَغْتُ شَقَّتي ، في ذٰلِكَ المَساءِ ، وَجَدْتُ عَمَّتي بِتْسي تروتْوود مُتَرَبِّعَةً على صَناديقَ مُكَدَّسَةٍ في قاعَةِ الجُلوسِ . ولَمّا لاحَظَتْ دَهْشَتي قالَتْ : «عَلَيْكَ ، يا تروت ، أَنْ تَتَحَلّى بِالشَّجاعَةِ والعَزْمِ .»

أَخَذْتُ أَنْظُرُ إِلَيْها في حَيْرَةٍ وارْتِباكٍ ، فَأَرْدَفَتْ : «لِأَيِّ سَبَبٍ تَظُنُّني جالِسَةً على هٰذِهِ الصَّناديقِ ؟» فَأَجَبْتُها : «لا أَعْرِفُ .»

فَقالَتْ : «هٰذِهِ الصَّناديقُ هِيَ كُلُّ ما بَقِيَ لي . إِنّي مُفْلِسَةٌ ، يا عَزيزي . لَقَدْ نَفِدَتْ أَمْوالي إِلى آخِرِ قِرْشٍ .»

فَلَمْ أُحَرِّكْ ساكِنًا وتَساءَلْتُ في حَيْرَتي عَمّا جَرى . وتابَعَتْ عَمَّتي قائِلَةً : «عَلَيْنا أَنْ نُواجِهَ مَشاكِلَنا بِشَجاعَةٍ ، يا تروت ، فَنَحْنُ الاثْنَيْنِ نَسْتَطيعُ أَنْ نَتَغَلَّبَ عَلَيْها مَعًا .»

فَكَّرْتُ - طَوالَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ - في وَضْعِنا الجَديدِ البائِسِ ، وبَدا جَلِيًّا أَنَّ عَمَّتي لَنْ تُعيلَني بَعْدَ الآنَ ، فَقَرَّرْتُ أَنْ أُطالِبَ السَّيِّدَيْنِ سپِنْلو وجوركِنْز بِالأَلْفِ جُنَيْهٍ الَّتي دَفَعَتْها لَهُما عَمَّتي لِقاءَ تَدْريبي المِهْنِيِّ . ولِلأَسَفِ رُفِضَ طَلَبي عَلى الفَوْرِ إِلّا أَنَّني كُنْتُ مُصَمِّمًا عَلى تَرْكِ الشَّرِكَةِ .

قَبْلَ ظُهْرِ اليَوْمِ التّالي ، ذَهَبْتُ وعَمَّتي إِلى بَيْتِ أَغْنِس لِزِيارَتِها ، وقَدْ وَصَلْنا إِلى كانتِرْبوري عِنْدَ الظَّهيرَةِ . وأَثارَ قَلَقَنا أَنْ نَراها حَزينَةً مُضْطَرِبَةً . قالَتْ : «آه يا صَديقي تروتْوود ، أَنا وأَبي نُواجِهُ مَشاكِلَ عَصيبَةً . لَقَدْ أَصْبَحَ أوريّا هيپ شَريكًا في المُؤَسَّسَةِ ، ونَقَلَ مَقَرَّ إِقامَتِهِ إِلى هُنا هُوَ ووالِدَتُهُ . وهٰذا يَعْني أَنَّ أوريّا هيپ سَيَحولُ ، أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ، بَيْني وبَيْنَ أَبي . إِنَّهُ - لِلأَسَفِ - قَدْ أَحْكَمَ سَيْطَرَتَهُ عَلى والِدي .»

كانَ وَقْعُ تِلْكَ الأَخْبارِ المُقْلِقَةِ شَديدًا عَلَيَّ وعَلى عَمَّتي . إِلّا أَنَّ أَغْنِس ما لَبِثَتْ أَنْ صَرَفَتْ نَظَرَها عَنْ مَشاكِلِها ووَجَّهَتِ اهْتِمامَها إِلى المُصيبَةِ الَّتي نَزَلَتْ بي وبِعَمَّتي . وفي غُضونِ أَرْبَعٍ وعِشْرينَ ساعَةً وَجَدَتْ لي صَديقَتي العَزيزَةُ عَمَلًا جُزْئِيًّا مُؤَقَّتًا مَعَ الدُّكْتورِ سترونْغ العَجوزِ . فَقَدْ تَقاعَدَ مِنْ عَمَلِهِ كَمُديرٍ لِلمَدْرَسَةِ واسْتَقَرَّ في لَنْدن حَيْثُ وَجَدَ نَفْسَهُ بِحاجَةٍ إِلى مَنْ يُساعِدُهُ في بَحْثٍ كانَ قَدْ باشَرَهُ .

وبَعْدَ مُرورِ أَيّامٍ مَعْدودَةٍ فوجِئْتُ بِرِسالَةٍ مِنَ السَّيِّدِ ميكوبر تُفيدُ أَنَّ فُرْصَةَ عَمَلٍ واعِدَةً قَدْ فُتِحَتْ أَمامَهُ أَخيرًا ، فَقَدْ دَعاهُ أوريّا هيپ إِلى كانتِرْبوري لِيُساعِدَهُ في إِدارَةِ أَعْمالِ السَّيِّدِ وِكْفيلْد . وفَكَّرْتُ فَوْرًا أَنَّ هٰذا يُنْذِرُ بِتَطَوُّراتٍ مُزْعِجَةٍ .

وأَثْناءَ ذٰلِكَ كُلِّهِ لَمْ أُطْلِعْ دورا عَلى الوَضْعِ المالِيِّ العَصيبِ لِعَمَّتي لِئَلّا أُقْلِقَها . لٰكِنَّ الحَقيقَةَ زَلَقَتْ مِنّي ذاتَ لَيْلَةٍ ، إِذِ اعْتَقَدْتُ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ أُصارِحَها بِشَجاعَةٍ وثِقَةٍ ، فَأَطْلَعْتُها عَلى الكارِثَةِ المالِيَّةِ الَّتي حَلَّتْ بِعَمَّتي والَّتي اضْطَرَّتْني إِلى الاتِّكالِ عَلى نَفْسي .

لَمْ تَتَحَمَّلِ المِسْكينَةُ هٰذا الخَبَرَ ، فَأَجْهَشَتْ بِالبُكاءِ . حاوَلْتُ بِكُلِّ بَلاهَةٍ ، أَنْ أُثيرَ اهْتِمامَها بِالطَّبْخِ وبِشُؤونِ المَنْزِلِ . ووَعَدَتْني بِأَنَّها سَتَبْذُلُ جُهْدَها وتَوَصَّلْتُ إِلى إِقْناعِ صَديقَتِها جوليا ميلْز بِتَشْجيعِها عَلى الاهْتِمامِ بِهٰذِهِ الأُمورِ .

فُوجِئْتُ ذاتَ يَوْمٍ ، بِخَبَرِ وَفاةِ السَّيِّدِ سِپِنْلو إِثْرَ سُقوطِهِ مِنْ عَرَبَتِهِ. لَقَدْ سَحَقَتْ هٰذِهِ الفاجِعَةُ المِسْكينَةَ دورا سَحْقًا ، فَبَكَتْ وبَكَتْ أَباها العَزيزَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ – وبَدَتْ وكَأَنَّها لا تَسْتَطيعُ الكَفَّ عَنِ التَّفْكيرِ بِوَفاتِهِ الأَليمَةِ. وانْتابَني القَلَقُ عَلى مُسْتَقْبَلِنا بَعْدَ أَنِ اتَّضَحَ لي أَنَّ والِدَها لَمْ يُخَلِّفْ لَها شَيْئًا يُذْكَرُ ، وكُنْتُ أَشُكُّ في قُدْرَتي عَلى إِعالَةِ زَوْجَةٍ.

لَجَأْتُ إِلى ترادلْز ، كَعادَتي كُلَّما احْتَجْتُ إِلى نَصيحَةٍ ، فَتَعَهَّدَ تَعْليمي الاخْتِزالَ ، مِمّا يُؤَهِّلُني لِزِيادَةِ دَخْلي بِالعَمَلِ كَمُراسِلٍ صَحَفِيٍّ لِلشُّؤونِ البَرْلَمانِيَّةِ. وكانَ هٰذا المَشْروعُ عامِلًا في تَغْييرِ مَجْرى حَياتي. فَسَرْعانَ ما اكْتَشَفْتُ فِيَّ مَوْهِبَةَ الكِتابَةِ. وفي غُضونِ السَّنَةِ التّالِيَةِ نَشَرْتُ أَوَّلَ رِوايَةٍ وجَنَيْتُ مِنَ الأَرْباحِ ما جَعَلَني قادِرًا عَلى تَحَمُّلِ أَعْباءِ الزَّواجِ.

طالَما اعْتَدْتُ أَنْ أُفَكِّرَ في أَغْنِس كُلَّما واجَهْتُ المَشاكِلَ ، فَأَخَذْتُ عَرَبَةً أَوْصَلَتْني باكِرًا إِلى كانتربوري. وهُناكَ وَجَدْتُ السَّيِّدَ ميكوبر مُسْتَقِرًّا في وَظيفَتِهِ الجَديدَةِ في مَكْتَبِ السَّيِّدِ وِكْفيلْد. واتَّضَحَ لي أَنَّهُ بَدَأَ يَنْقادُ لِأُورِيّا هيپ ، فَبَدا مُراوِغًا مُتَهَرِّبًا.

وبَيْنَما كُنّا عَلى العَشاءِ في مَنْزِلِ وِكْفيلْد ، ذٰلِكَ المَساءَ ، تَجَرَّأَ أورِيّا هيپ عَلى شُرْبِ نَخْبِ أَغْنِس قائِلًا : «بِصِحَّةِ أَجْمَلِ سَيِّدَةٍ في بِلادِنا.» ثُمَّ الْتَفَتَ نَحْوَ السَّيِّدِ وِكْفيلْد وأَرْدَفَ : «أَنْ يَكونَ امْرُؤٌ والِدَ أَغْنِس وِكْفيلْد فَهٰذا مَوْضِعُ افْتِخارٍ ، فَماذا يَقولُ المَرْءُ الّذي سَيُصْبِحُ زَوْجًا لَها؟»

لَمْ أَسْمَعْ ، في حَياتي ، صَرْخَةً كَتِلْكَ الّتي صَدَرَتْ عَنْ والِدِ أَغْنِس إِثْرَ تَفَوُّهِ أورِيّا هيپ بِكَلامِهِ الخَبيثِ. فَقَدْ أَشارَ بِإِصْبَعِهِ إِلى أورِيّا وهُوَ يَصيحُ مِنْ شِدَّةِ كَرْبِهِ : «أَيُّها الوَحْشُ الخَسيسُ ! بِسَبَبِكَ تَنازَلْتُ تَدْريجًا عَنْ سُمْعَتي وراحَةِ بالي ، ثُمَّ عَنْ مُؤَسَّسَتي وبَيْتي. لٰكِنَّني لَنْ أُسَلِّمَكَ ابْنَتي أَبَدًا.» ثُمَّ ارْتَمَى العَجوزُ المِسْكينُ عَلى مَقْعَدٍ وأَخَذَ يَبْكي.

بَيْنَما كُنْتُ أَتَأَهَّبُ لِلرَّحيلِ ، في وَقْتٍ لاحِقٍ ، تَسَلَّلَ أورِيّا نَحْوي وقالَ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ أَشْبَهَ بِنَقيقِ الضَّفادِعِ : «أَظُنُّ أَنَّ الإِنْسانَ أَحْيانًا يَقْطِفُ التُّفّاحَ عَنِ الشَّجَرَةِ قَبْلَ نُضْجِهِ ، لٰكِنَّ السّاعَةَ سَتَأْتي في حينِها ، وسَأَنْتَظِرُ.»



كانَ مِنَ الطَّبيعِيِّ، في تِلْكَ الفَتْرَةِ، أَنْ أَتَرَدَّدَ على دورا. وأَزْعَجَتْني طَريقَةُ النّاسِ في مُعامَلَتِها كَأَنَّها دُمْيَةٌ صَغيرَةٌ، فَلَمْ يَرَوْا فيها امْرَأَةً بَلْ طِفْلَةً لَعوبًا، حَتّى عَمَّتي كانَتْ تَدْعوها «الزَّهْرَةَ الصَّغيرَةَ». وعَمَدْتُ إلى مُفاتَحَةِ دورا بِالمَوْضوعِ، لٰكِنَّها تَكَدَّرَتْ وقالَتْ: «أَرى أَنَّكَ سَتَغْضَبُ مِنّي».

أَجَبْتُ: «يا حَبيبَتي، بَلْ كُلُّ ما أُريدُهُ هُوَ مُساعَدَتُكِ على أَنْ تُصْبِحي زَوْجَةً صالِحَةً ورَبَّةَ مَنْزِلٍ ناجِحَةً».

وتَوَصَّلْتُ إلى إقْناعِها بِقِراءَةِ بَعْضِ الكُتُبِ الّتي اشْتَرَيْتُها لَها حَوْلَ فَنِّ الطَّبْخِ وتَدْبيرِ النَّفَقاتِ المَنْزِلِيَّةِ. لٰكِنَّها لَمْ تَلْبَثْ أَنْ كَفَّتْ عَنْ جُهودِها ورَمَتْ كُتُبَها في زاوِيَةٍ مِنْ زَوايا البَيْتِ حَيْثُ تَبَعْثَرَتْ وتَمَزَّقَتْ. إلّا أَنَّني ظَلِلْتُ مُتَيَّمًا بِها، فَقَرَّرْنا أَنْ نَتَزَوَّجَ. وأَقَمْتُ مَعَ زَوْجَتي الطِّفْلَةِ البَريئَةِ في كوخٍ صَغيرٍ جَميلٍ، واعْتَقَدْنا أَنَّنا أَسْعَدُ زَوْجَيْنِ في العالَمِ. لٰكِنَّ قُصورَ زَوْجَتي التّامَّ في تَدْبيرِ شُؤونِ مَنْزِلِنا ظَهَرَ بِوُضوحٍ. فَهِيَ لَمْ تُجِدْ تَنْظيمَ طَعامِنا، ولا ابْتِياعَ حاجاتِنا، ولا الإشْرافَ على خَدَمِنا الّذينَ فَقَدوا احْتِرامَهُمْ لَها وراحوا يَسْرِقونَ الثِّيابَ وغَيْرَها مِنْ أَغْراضِ البَيْتِ، حَتّى إنَّهُمْ كادوا يُفْسِدونَ حَياتَنا الزَّوْجِيَّةَ.

في السَّنَةِ التّالِيَةِ بَدَأَ ما سَبَّبَتْهُ تِلْكَ الهُمومُ مِنْ تَوَتُّرٍ يُحْدِثُ أَثَرًا ظاهِرًا على صِحَّةِ زَوْجَتي العَزيزَةِ. فَخَبا نَشاطُها ووَهَنَتْ حَتّى آلَ بِها الحالُ إلى أَنْ تَلْزَمَ الفِراشَ حَيْثُ أَخَذَتْ تَذوبُ شَيْئًا فَشَيْئًا. وفيما كانَتْ حالَتُها تَتَدَهْوَرُ، بَقِيَتْ أَغْنِس بِجانِبِنا لِتُواسِيَنا في مِحْنَتِنا. وانْطَفَأَتْ دورا بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ، فَانْهارَ العالَمُ مِنْ حَوْلي، وغَمَرَتْني الكَآبَةُ، واكْتَنَفَني الحُزْنُ.

وها قَدْ أَعادَتْني إلى شُؤونِ الحَياةِ وشُجونِها رِسالَةٌ مِنَ السَّيِّدِ ميكوبر، يَدْعوني فيها إلى الاجْتِماعِ بِهِ في مَكْتَبِ السَّيِّدِ وِكْفيلْد. فَلَبَّيْتُ دَعْوَتَهُ وذَهَبْتُ مَعَ عَمَّتي لِأُقابِلَهُ. وإذا بِنا نَجِدُ ترادلز وعَزيزَتي أَغْنِس وأوريّا هيب ووالِدَتَهُ بِانْتِظارِنا.

وكَمْ فَرِحْتُ بِرُؤْيَةِ صَديقي الدّائِمِ ترادلز! فَقَدْ كانَ صَديقًا حَقيقِيًّا ومُخْلِصًا مِنَ النَّوْعِ النّادِرِ. وعَلى الرَّغْمِ مِنَ الجُهودِ المُضْنِيَةِ الّتي كانَ يَبْذُلُها كَيْ يَتَعَلَّمَ مِهْنَةَ المُحاماةِ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّ يَوْمًا عَنّي وعَنِ المِسْكينَةِ دورا. وبَعْدَ وَفاتِها، تَوَلّى عَزائي وخَفَّفَ مِنْ لَوْعَتي. إنَّهُ يُجَسِّدُ مَعْنى الصَّداقَةِ الحَقيقِيَّةِ.



بَدا لي هيب مُنْشَغِلَ البالِ ، فَقَدْ أَثارَ ريبَتَهُ لِقاؤُنا الفُجائِيُّ. فَطَلَبَ مِنَ السَّيِّدِ ميكوبر أَنْ يَتْرُكَنا لِنَتَحدَّثَ. إلّا أَنَّ ميكوبر رَفَضَ طَلَبَهُ ، وانْتَصَبَ واقِفًا وراحَ يَتَّهِمُ أوريّا هيب بالغِشِّ والخِداعِ ، شارِحًا لَنا كَيْفَ أَنَّهُ أَكْرَهَهُ على تَزْويرِ السِّجِلّاتِ ، وعَلى التَّواطُؤِ مَعَهُ في اخْتِلاسِ وَدائِعَ عُهِدَ بِها إلى السَّيِّدِ وِكْفيلد ، وبَيْنَ تِلْكَ الوَدائِعِ أَمْوالٌ لِعَمَّتي.

فارْتَدَّ أوريّا إلى الوَراءِ وكَأَنَّهُ أُصيبَ بِضَرْبَةٍ على رَأْسِهِ. غَيْرَ أَنَّ السَّيِّدَ ميكوبر أَكْمَلَ سِلْسِلَةَ اتِّهاماتِهِ قائِلًا : «لَدَيَّ دَليلٌ على أَنَّ هيب أَكْرَهَ السَّيِّدَ وِكْفيلد على اتِّخاذِهِ شَريكًا لَهُ ثُمَّ عَمَدَ إلى الاحْتِيالِ عَلَيْهِ وسَلْبِهِ أَمْوالَهُ. لَقَدْ أَخَذْتُ دَفاتِرَ المُحاسَبَةِ الَّتي يَحْفَظُها هيب في الخَزْنَةِ وفيها ما يُثْبِتُ أَقْوالي. والدَّفاتِرُ الآنَ في حَوْزَةِ صَديقِنا الكَريمِ السَّيِّدِ ترادلز. إنَّ هيب سَيُسْجَنُ ما لَمْ يُوَقِّعْ على وَثيقَةٍ تُخَوِّلُ السَّيِّدَ ترادلز أَنْ يُصْبِحَ قَيِّمًا على هٰذِهِ الحِساباتِ والوَدائِعِ والأَمْوالِ كُلِّها.»

وَلَمْ يَبْقَ أَمامَ أوريّا هيب سِوى أَنْ يُسَلِّمَ بِهَزيمَتِهِ ، فَوَقَّعَ على الوَثيقَةِ وانْسَحَبَ خائِبًا

كالحَشَرَةِ الزّاحِفَةِ مُلَمْلِمًا أَذْيالَ حَقارَتِهِ ودَناءَتِهِ.

بَعْدَ ذٰلِكَ تَرَكْنا السَّيِّدَ وِكْفيلد وأَغْنِس في رِعايَةِ ترادلز ، ورافَقْنا السَّيِّدَ ميكوبر إلى مَنْزِلِهِ. وعِنْدَما بَلَغَ بَيْتَهُ حَيّا زَوْجَتَهُ مُتَوَدِّدًا : «يا زَوْجَتي الغالِيَةَ ، لَقَدْ بَرَّأْتُ اسْمي ! والآنَ يُمْكِنُنا أَنْ نَتَحَمَّلَ الجوعَ والعَوَزَ مَعَ راحَةِ البالِ. إلّا أَنَّ حُبَّنا سَيُسانِدُنا.»

وتَدَخَّلَتْ عَمَّتي بِطَريقَتِها المَعْهودَةِ قائِلَةً : «إنّي لَأَتَساءَلُ ، يا سَيِّدُ ميكوبر ، كَيْفَ أَنَّكَ لَمْ تُفَكِّرْ بَعْدُ في الهُجْرَةِ إلى أستراليا ، فَقَدْ تَبْتَسِمُ لَكَ الحَياةُ هُناكَ.»

ورَدَّ عَلَيْها السَّيِّدُ ميكوبر قائِلًا : «طالَما فَكَّرْتُ في الأَمْرِ يا سَيِّدَتي. لٰكِنّي أُواجِهُ مُشْكِلَةً.» أَمّا أَنا فَكُنْتُ واثِقًا مِنْ أَنَّ فِكْرَةَ السَّفَرِ لَمْ تَخْطُرْ لَهُ بِبالٍ مِنْ قَبْلُ.

وسَأَلَتْهُ عَمَّتي : «هَلْ تَعْني المالَ؟ ولٰكِنَّنا نَوَدُّ أَنْ نُبادِلَكَ المَعْروفَ الَّذي أَدَّيْتَهُ لَنا ، بَعْدَ أَنِ اسْتَرْجَعْتَ أَمْوالي بِفَضْلِكَ.»

أَوْكَلْنا ترادلز بِالقِيامِ بِكُلِّ المُعامَلاتِ القانونِيَّةِ والإِجْراءاتِ المالِيَّةِ. ولَمّا سَلَّمَ مَبْلَغًا مِنَ المالِ لِلسَّيِّدِ ميكوبر لِيُعينَهُ على السَّفَرِ والاسْتِقْرارِ في أستراليا، قالَ: «إِنّي أَنْصَحُكَ يا سَيِّدُ ميكوبر بِأَلّا تَسْتَدينَ أَبَدًا بَعْدَ الآنَ!»

ورَدَّدَ السَّيِّدُ ميكوبر: «لَنْ أَفْعَلَ أَبَدًا! بَلْ سَأُدَوِّنُ هٰذا العَهْدَ على صَفْحَةِ حَياتي الجَديدَةِ، وسَأَطْبَعُ في ذِهْنِ ابْني الشّابِّ وِلْكِنْز أَنَّ وَضْعَ يَدِهِ في النّارِ أَفْضَلُ مِنْ مَدِّها لِأَحَدِ أُولٰئِكَ الدّائِنينَ المُرابينَ الّذينَ طالَما أَفْسَدوا حَياةَ والِدِهِ البائِسِ.»

وبَيْنَما كانَتْ تَجْري تِلْكَ الأَحْداثُ البالِغَةُ الأَهَمِّيَّةِ، كانَ العَمُّ بيغوتي المِسْكينُ يُواصِلُ البَحْثَ في كُلِّ مَكانٍ عَنْ إميلي. حَتّى إِنَّ الإِشاعاتِ والمَعْلوماتِ حَمَلَتْهُ على السَّفَرِ إلى فَرَنْسا وإيطاليا. وبَعْدَ مُرورِ سَنَتَيْنِ بَلَغَنا خَبَرٌ يُفيدُ أَنَّها في مَكانٍ ما في لندن. فاقْتَفَيْتُ والسَّيِّدَ بيغوتي أَثَرَ مُخْبِرِنا الّذي دَلَّنا على نُزُلٍ واسِعٍ وَضيعٍ في حَيٍّ حَقيرٍ مِنْ أَحْياءِ المَدينَةِ. صَعِدْنا إلى الطّابِقِ الأَعْلى، ثُمَّ دَفَعْنا البابَ فَوَجَدْنا صَغيرَتَنا إميلي نَحيفَةً تَعِبَةً بائِسَةً، إِلّا أَنَّ البَريقَ لَمْ يُفارِقْ عَيْنَيْها. ولا تَسَلْ عَنْ فَرْحَتِنا ودَهْشَتِنا عِنْدَما عَثَرْنا عَلَيْها أَخيرًا!

راحَتْ تُحَدِّقُ إِلَيْنا غَيْرَ مُصَدِّقَةٍ أَنّي وخالَها واقِفانِ أَمامَها. وصَرَخَتْ: «خالي! خالي!» ثُمَّ انْهارَتْ وسَقَطَتْ بَيْنَ ذِراعَيِ العَمِّ بيغوتي. وراحَ يُشْبِعُ نَظَرَهُ مِنْ وَجْهِها الشّاحِبِ الحَزينِ ثُمَّ انْحَنى عَلَيْها وقَبَّلَها.

وقالَ بِصَوْتٍ يَكادُ يَخْنُقُهُ البُكاءُ: «إِنّي أَشْكُرُ اللهَ يا سَيِّدُ ديفي، فَها قَدْ تَحَقَّقَ حُلْمي أَخيرًا.» وحَمَلَها بِرِقَّةٍ وحَنانٍ إلى خارِجِ النُّزُلِ.

وتَحَقَّقْنا، فيما بَعْدُ مِنْ أَنَّ إميلي الصَّغيرَةَ قَدْ طافَتْ بِالفِعْلِ في فَرَنْسا وإيطاليا، حَيْثُ كادَتْ تَفْقِدُ رُشْدَها مِرارًا، إِلّا أَنَّ العِنايَةَ الإِلٰهِيَّةَ أَعادَتْها في النِّهايَةِ إلى مَنْزِلِها. وأَحاطَها خالُها بِرِعايَتِهِ حَتّى اسْتَرْجَعَتْ عافِيَتَها وعادَتِ السَّكينَةُ إلى قَلْبِها.

بَعْدَ مُرورِ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ، أَعْلَنَ لَنا السَّيِّدُ بيغوتي قَرارَهُ بِالهِجْرَةِ إلى أستراليا، حَيْثُ كانَ يَأْمُلُ أَنْ تَنْسى إميلي الماضِيَ وتَبْني حَياةً جَديدَةً. ولٰكِنَّهُ آثَرَ أَنْ يَتْرُكَ هام يَعيشُ حَياتَهُ في



يارْموث حَيْثُ ازْدَهَرَتْ أَعْمالُهُ في صِناعَةِ المَراكِبِ.

اِنْتَقَلْتُ مَعَ السَّيِّدِ بيغوتي إلى يارموث لِتَصْفِيَةِ أَعْمالِهِ هُناكَ، وقَضَيْنا آخِرَ لَيْلَةٍ في بَيْتِهِ الغَريبِ على شاطِئِ البَحْرِ. وفي الصَّباحِ التّالي تَحَدَّثْتُ مَعَ هام حَوْلَ مُسْتَقْبَلِهِ، وكانَ قَدْ عَلِمَ بِعُثورِنا على إميلي.

سَأَلَني هام بِصَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ: «هَلْ رَأَيْتَها يا سَيِّدُ ديفي؟» ولَمّا أَجَبْتُهُ بِالإِيجابِ قالَ: «هَلّا بَلَّغْتَها فَقَطْ أَنّي أَطْلُبُ مِنْها العَفْوَ على ما أَظْهَرْتُهُ لَها مِنْ إِلْحاحٍ مُزْعِجٍ في فَرْضِ عَواطِفي عَلَيْها، وأَنّي ما زِلْتُ أُحِبُّها.»


عُدْتُ إلى لندن مَعَ السَّيِّدِ پيغوتي بَعْدَ أَنْ أَنْهَيْنا عَمَلَنا في يارْموث. فَنَقَلْتُ رِسالَةَ هام النَّبيلَةَ إلى إميلي الصَّغيرَةِ. وبَعْدَ مُرورِ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، أَراني السَّيِّدُ پيغوتي رِسالَةً مِنْ إميلي إلى هام، عَلَيْها آثارُ دُموعٍ، وأَلَحَّ عَلَيَّ في أَنْ أَتَوَلَّى أَمْرَها. فَعَزَمْتُ أَنْ أَذْهَبَ إلى يارْموث في الحالِ لِتَسْليمِها إلى هام بِيَدي.

في اليَوْمِ التّالي، وفيما كانَتِ العَرَبَةُ تَسيرُ عَلى الخَطِّ السّاحِلِيِّ، لاحَظْتُ ما يُنْذِرُ بِدُنُوِّ عاصِفَةٍ عَنيفَةٍ. فَقَبْلَ أَنْ يَتَراءَى لَنا البَحْرُ، رَطَّبَ شِفاهَنا رَذاذٌ مُشْبَعٌ بِالمِلْحِ وبَلَّلَنا، ثُمَّ لاحَ لَنا البَحْرُ وقَدْ تَعالَتْ أَمْواجُهُ وتَعاقَبَتْ فَخِلْتُ أَنَّها سَتَبْتَلِعُ المَدينَةَ.

عِنْدَ السّاعَةِ الثّامِنَةِ مِنْ صَباحِ اليَوْمِ التّالي، بَعْدَ لَيْلَةٍ مِنَ الأَرَقِ تَعالَتْ طَوالَها أَصْواتٌ ناتِجَةٌ عَنْ سُقوطِ أَنابيبِ المَداخِنِ وَتَحَطُّمِ الأَبْوابِ والشَّبابيكِ، وَصَلَتْ إلى مَسْمَعي أَصْواتٌ صاخِبَةٌ: «سَفينَةٌ تَغْرَقُ! سَفينَةٌ تَغْرَقُ! أَسْرِعوا».

هُرِعْتُ إلى الشّاطِئِ، فَرَأَيْتُ السَّفينَةَ، وقَدْ تَحَطَّمَتْ إحْدى صَواريها، وتَشابَكَتِ الأَشْرِعَةُ والحِبالُ، وباتَتْ تَتَأَرْجَحُ بِعُنْفٍ. حاوَلَ بَعْضُ مَلّاحي السَّفينَةِ قَطْعَ الحِبالِ بِالفُؤوسِ لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الحُطامِ، لَكِنْ بِلا جَدْوى. وإذا بِمَوْجَةٍ هائِلَةٍ تَرْتَفِعُ فَوْقَ ظَهْرِ السَّفينَةِ حامِلَةً مَعَها إلى البَحْرِ الهائِجِ رِجالًا وصَوارِيَ وبَراميلَ وأَلْواحًا خَشَبِيَّةً.

عِنْدَما هَمَدَ البَحْرُ مُؤَقَّتًا لَمْ يَبْقَ في المَرْكَبِ سِوى رَجُلَيْنِ ما لَبِثَتِ المِياهُ أَنْ جَرَفَتْ أَحَدَهُما، أَمّا الثّاني فَتَشَبَّثَ بِكُلِّ قُواهُ بِما تَبَقَّى مِنْ إحْدى الصَّواري ولَوَّحَ لَنا بِطَريقَةٍ ذَكَّرَتْني بِصَديقٍ كُنْتُ أُعِزُّه في الماضي. وفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ رَأَيْتُ هام يَشُقُّ طَريقَهُ وَسْطَ الجُمْهورِ، ثُمَّ يَلْتَقِطُ حَبْلًا ويَعْقِدُهُ حَوْلَ وَسَطِهِ مُسَلِّمًا طَرَفَهُ الآخَرَ إلى بَعْضِ الرِّجالِ المُسْتَعِدّينَ لِلمُساعَدَةِ، فَأَحْكَموا قَبْضَتَهُمْ عَلَيْهِ. وخاضَ هام في المِياهِ الثّائِرَةِ واتَّجَهَ نَحْوَ السَّفينَةِ، وسَرْعانَ ما تَعَرَّضَ لِلارْتِطامِ بِالمَرْكَبِ.




فَاضْطُرِرْنا إلى جَرِّهِ خارِجَ الماءِ ، وقَدْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ بَعْضُ الجُروحِ وتَلَطَّخَ وَجْهُهُ بالدِّماءِ. ولٰكِنَّهُ ما إنِ اسْتَرْجَعَ أَنْفاسَهُ حَتّى أَصَرَّ عَلى مُعاوَدَةِ الكَرَّةِ والقِيامِ بِمُحاوَلَةِ إنْقاذٍ أُخْرى. وما لَبِثَتِ الأَمْواجُ أَنْ قَذَفَتْ بِهِ يَميناً وشِمالاً حَتّى غابَ عَنْ أَنْظارِنا دَقائِقَ. ثُمَّ رَأَيْناهُ يَدْنو مِنَ السَّفينَةِ. عِنْدَئِذٍ ، ضَرَبَتْ جانِبَ السَّفينَةِ مَوْجَةٌ هَوْجاءُ وَقَعَتْ عَلَيْها كَالجَبَلِ العاتي فَقَلَبَتْها رَأْسًا عَلى عَقِبٍ ودَفَنَتْها تَحْتَ لُجَّةِ البَحْرِ. وقَدْ ظَلَّتِ الأَيْدي الجاهِدَةُ تَشُدُّ بِالحَبْلِ لِتَسْحَبَ هامَ المِسْكينَ إلى الشّاطِئِ حَتّى أَلْقَتْهُ عِنْدَ قَدَمَيَّ جُثَّةً هامِدَةً.

وتَوَجَّهَ إلَيَّ صَيّادٌ كانَ يَعْرِفُني مُنْذُ طُفولَتي ، أَيّامَ كُنْتُ أَلْعَبُ عَلى الرِّمالِ مَعَ الصَّغيرَةِ إميلي ، وصاحَ : «يا سَيِّدُ ديفي ! هُناكَ جُثَّةٌ قَدْ لَفَظَها البَحْرُ عَلى الشّاطِئِ !» وأَشارَ إلى مَسافَةٍ قَريبَةٍ. سَأَلْتُهُ : «هَلْ أَعْرِفُ هٰذا الرَّجُلَ؟» فَلَمْ يُجِبْ ، بَلْ قادَني إلى حَيْثُ الجُثَّةُ. وهُناكَ ، عَلى الرِّمالِ ، الّتي كانَتْ مَلاعِبَ طُفولَتِنا أَنا وإميلي ، وَجَدْتُ جُثَّةَ ستيرْفورْث وقَدْ كادَتْ تَتَمَزَّقُ.

بَعْدَ رُجوعي إلى لنْدن كانَ عَلَيَّ الذَّهابُ إلى أَحْواضِ غرينتْش مَعَ العَمِّ بيغوتي العَزيزِ ، والمِسْكينَةِ إميلي الصَّغيرَةِ اسْتِعْدادًا لِلسَّفَرِ إلى أستراليا. وكانا سَيَحْظَيانِ في سَفَرِهِما الطَّويلِ بِمُرافَقَةِ السَّيِّدِ ميكوبر ومُساعَدَتِهِ. وقَدْ أَظْهَرَ هٰذا الأَخيرُ ذٰلِكَ النَّهارَ اهْتِمامًا بِالغَيْرِ ومَرَحًا قَلَّما أَلِفْتُهُما عِنْدَهُ.

اِجْتَمَعْنا في النُّزُلِ الوَضيعِ حَيْثُ نَزَلَتْ أُسْرَةُ ميكوبر في أَيّامِها الأَخيرَةِ في إنْكِلْترا. وَقَدْ أَظْهَرَ السَّيِّدُ ميكوبر حُسْنَ ضِيافَتِهِ المَعْهودَةِ. فَحَضَّرَ لَنا مَزيجًا خاصًّا مِنَ الشَّرابِ كَعادَتِهِ. ثُمَّ حانَتْ ساعَةُ فِراقِنا المُؤْلِمِ ، فَعانَقْتُ السَّيِّدَ بيغوتي والدُّموعُ تَنْهَمِرُ عَلى وَجْنَتَيَّ — ولَمْ أَقْوَ عَلى الكَلامِ وأَنا أَضُمُّ إميلي الصَّغيرَةَ ، مَحْبوبَةَ طُفولَتي. ووَدَّعَني ، أَخيرًا ، السَّيِّدُ ميكوبر وزَوْجَتُهُ وَداعًا مُؤَثِّرًا بَعْدَ أَنِ انْعَقَدَ لِسانُهُما. ثُمَّ انْتَقَلْنا جَميعًا إلى الرَّصيفِ وصَعِدَ المُسافِرونَ إلى مَتْنِ السَّفينَةِ.

ما لَبِثَتِ السَّفينَةُ أَنِ انْطَلَقَتْ وانْتَفَخَتْ أَشْرِعَتُها بِالهَواءِ ، واتَّجَهَتْ عَبْرَ النَّهْرِ إلى عُرْضِ البَحْرِ. وصَدَرَتْ عَنْ ظَهْرِ السَّفينَةِ هُتافاتُ الوَداعِ ، فَكادَ قَلْبي يَغوصُ في صَدْري ورَأَيْتُ إميلي بِجانِبِ عَمِّها تَنْظُرُ إلَيْنا ، ونَحْنُ عَلى الرَّصيفِ ، مُلَوِّحَةً بِيَدِها في وَداعٍ أَخيرٍ. فَانْهارَتْ قُوايَ ولَمْ أَعُدْ أَتَحَمَّلُ المَزيدَ مِنَ الانْفِعالِ فَبَكَيْتُ بُكاءً مَريرًا.

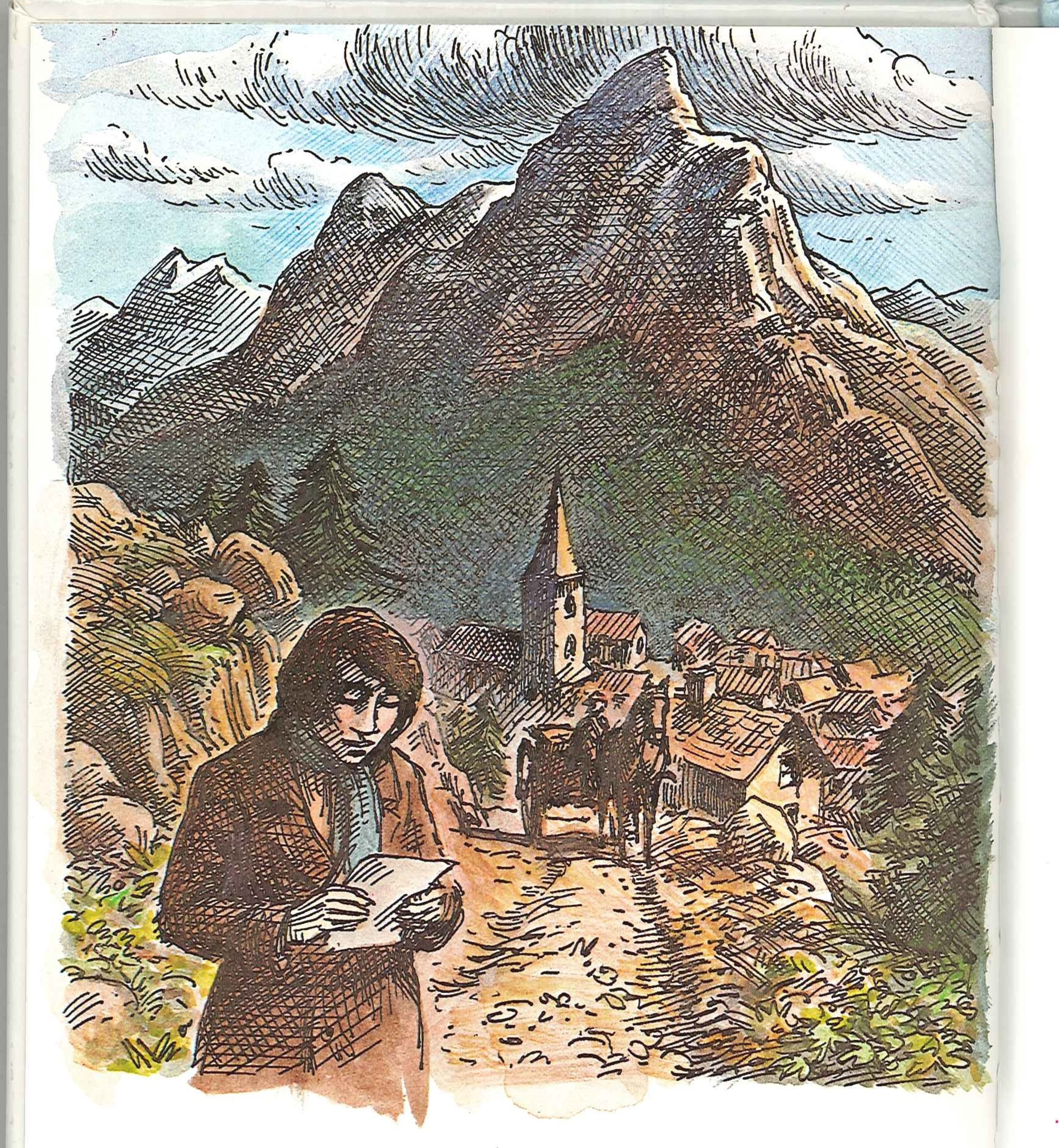


في الأَسابيعِ التّاليَةِ خُيِّلَ إليَّ أنَّ أَحِبّائي جميعَهُمْ قَدْ هجَروني مِنْ غَيْرِ عَوْدَةٍ. فَبَعْدَ أَنْ تُوُفِّيَتْ عَزيزَتي دورا ها قَدْ غادَرَ هٰذِهِ الشَّواطِئَ أَحَبُّ أَصْدِقائي، مُنْذُ طُفولَتي، لِيَنْتَقِلوا إلى أَقاصي الأَرْضِ. ولٰكِنّي أَدْرَكْتُ، في لَحْظَةٍ مِنَ الوَعْيِ، أَنَّ في حُزْني شَيْئًا مِنَ التَّحامُلِ والأَنانيَّةِ. فَما زالَتْ عَمَّتي الحَبيبَةُ بِتْسي بِجانِبي وصَديقي المُخْلِصُ ترادلز ومُرَبِّيَتي الوَفِيَّةُ العَجوزُ بيغوتي وخُصوصًا مَلاكي الأَمينُ أَغْنِس. ومَعَ ذٰلِكَ، عَمَدْتُ، لإِزاحَةِ الكَآبَةِ الرّاسِخَةِ في قَلْبي، إلى السَّفَرِ خارِجَ البِلادِ، فَقَضَيْتُ ثَلاثَ سَنَواتٍ مُتَنَقِّلًا بَيْنَ فَرَنْسا وإيطاليا وسويسرا.

وحَمَلَتْني وَحْدَتي على المُثابَرَةِ على الكِتابَةِ، فَأَرْسَلْتُ رِوايَتي الثّانيَةَ إلى ترادلز في لَنْدن كَيْ يَجِدَ لي ناشِرًا. وبِالطَّبْعِ لَمْ يَخْذُلْني ترادلز. ونالَتِ الرِّوايَةُ، فَوْرَ نَشْرِها، شُهْرَةً جَعَلَتْني في عِدادِ المُؤَلِّفينَ الشُّبّانِ اللّامِعينَ.

وما بَرِحْتُ أَتَلَقّى، خِلالَ تِلْكَ الفَتْرَةِ، عَدَدًا مِنَ الرَّسائِلِ. ووَصَلَتْني، ذاتَ يَوْمٍ، رِسالَةٌ مِنْ أَغْنِس. فَلَفَتَتْني رِسالَتُها إلى واقِعٍ كُنْتُ عَنْهُ كَالغافِلِ، وهُوَ أَنَّ إِخْلاصَها الثّابِتَ وشُعورَها المُحِبَّ كانا سَنَدًا دائِمًا لي في المِحَنِ والمَصاعِبِ. ومِنْ خِلالِ رِسالَتِها، سَمِعْتُ نِداءَ الوَطَنِ مِنْ جَديدٍ، فَعُدْتُ إلى لَنْدن. ذَهَبْتُ، فَوْرَ وُصولي، إلى صَديقي ترادلز، ووَجَدْتُ أَنَّهُ قَدْ بَدَأَ يَبْرُزُ في مِهْنَةِ المُحاماةِ. وشَجَّعَني ترادلز على تَوْسيعِ نِطاقِ نَشاطي في مَجالِ الكِتابَةِ، وسُرْعانَ ما أَصْبَحْتُ مِنَ الأُدَباءِ المَشْهورينَ وبَدَأْتُ أَتَمَتَّعُ بِالثَّراءِ النّاتِجِ عَنْ ذٰلِكَ النَّجاحِ. وقَدْ سُرِرْتُ، بِصورَةٍ خاصَّةٍ، عِنْدَما عَلِمْتُ أَنَّ ترادلز قَدْ تَزَوَّجَ مِنْ فَتاةٍ رائِعَةٍ. وشَجَّعَتْني سَعادَتُهُ الزَّوْجيَّةُ مِنْ جِهَةٍ، ووَضْعي الماليُّ المُزْدَهِرُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرى، عَلى أَنْ أَنْظُرَ بِجِدِّيَّةٍ في مَشاريعي وتَطَلُّعاتي المُسْتَقْبَلِيَّةِ. وتَمَحْوَرَتْ أَفْكاري حَوْلَ أَغْنِس بَعْدَ أَنْ أَيْقَنْتُ بِمَرارَةٍ أَنَّ تَصَرُّفي تِجاهَها قَدِ اتَّصَفَ بِالحَماقَةِ وقِصَرِ النَّظَرِ.

كُنْتُ أَتَرَدَّدُ لِزِيارَةِ عَمَّتي وعَزيزَتي بيغوتي الّتي كانَتْ تَعيشُ مَعَها. وذاتَ يَوْمٍ، سَأَلَتْني عَمَّتي إذا ما كُنْتُ سَأَذْهَبُ إلى كانتربوري لِأَزورَ السَّيِّدَ وِكْفيلد وأَغْنِس. وقَدْ ظَلَلْتُ على اتِّصالٍ بِهِما أَثْناءَ سَفَري. فَسَأَلْتُها بِبَراءَةٍ: «هَلْ لِأَغْنِس حَبيبٌ؟»



فَأَجابَتْ مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ: «عِشْرونَ واحِدًا! وكُلُّهُمْ طالِبو زَواجٍ.»

وسَأَلْتُها: «هَلْ بَيْنَهُمْ مَنْ هُوَ جَديرٌ بِها؟»

فَأَجابَتْ عَمَّتي بِأُسْلوبٍ غامِضٍ وهِيَ تُمْعِنُ النَّظَرَ إِلَيَّ: «إِنَّني أَشُكُّ في ذٰلِكَ.»



ذَهَبْتُ، في اليَوْمِ التّالي، إلى مَنْزِلِ آلِ وِكْفيلد في كانتربوري، حَيْثُ اجْتَمَعْتُ بِعَزيزَتي أَغْنِس. وما إنْ رَأَتْني حَتّى أَسْرَعَتْ لِتُرَحِّبَ بي وَوَجْهُها مُشْرِقٌ بِالفَرَحِ، فَتَلَقَّيْتُها بَيْنَ ذِراعَيَّ وَصَرَّحْتُ لَها بِصَوْتٍ خافِتٍ: «يا عَزيزَتي أَغْنِس، لَقَدْ عُدْتُ إِلَيْكِ أَخيرًا».

رَأَيْتُ وَجْهَها المُبَلَّلَ بِالدُّموعِ يُشِعُّ بِنورٍ مَلائِكِيٍّ، فَلَمْ أَقْدِرْ على ضَبْطِ مَشاعِري، وقُلْتُ لَها مُتَلَعْثِمًا: «يا عَزيزَتي أَغْنِس، تَعْلَمينَ أَنّي لَجَأْتُ إِلَيْكِ بِاسْتِمْرارٍ طَلَبًا لِلْمُساعَدَةِ أَوِ النَّصيحَةِ، حَتّى إنَّ حُبّي لِلْمِسْكينَةِ دورا، ما كانَ لِيَكْتَمِلَ لَوْلا تَفَهُّمُكِ وَعَطْفُكِ. لَقَدْ رَحَلْتُ وأَنا أُحِبُّكِ، وَمَكَثْتُ بَعيدًا وأَنا أُحِبُّكِ، وَعُدْتُ أَخيرًا إلى الوَطَنِ وأَنا لا أَزالُ أُحِبُّكِ! لَقَدْ أَدْرَكْتُ أَخيرًا حَقيقَةَ شُعوري!» فَأَجابَتْ: «وأَنا أَيْضًا قَدْ أَحْبَبْتُكَ مُنْذُ البِدايَةِ، ولا تَزالُ حُبّي الوَحيدَ.»

تَزَوَّجْنا في غُضونِ أُسْبوعَيْنِ، وكانَ العُرْسُ بَسيطًا وهادِئًا. فَبِالإِضافَةِ إلى عَمَّتي بِتْسي وبيغوتي اللَّتَيْنِ تَوَلَّتا أَمْرَ التَّرْتيباتِ والتَّحْضيراتِ، حَضَرَ الحَفْلَ ترادلز ومُديرُ مَدْرَسَتي السّابِقُ الدُّكتورُ سترونغ وزَوْجَتاهُما. وكانَ هٰذا اليَوْمُ يَوْمَ فَرَحٍ عَظيمٍ بِالنِّسْبَةِ لَنا كُلِّنا. وفي وَقْتٍ لاحِقٍ، بَعْدَ الظُّهْرِ، انْفَصَلْنا بِصُعوبَةٍ عَنْ أَصْدِقائِنا الأَعِزّاءِ لِنَذْهَبَ نَحْنُ الاثْنَيْنِ، في طَريقِنا، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحْنا زَوْجَيْنِ أَخيرًا.

في المَساءِ، تَحَدَّثْنا بِإِسْهابٍ عَنِ الماضي وعَنِ المُسْتَقْبَلِ. قالَتْ أَغْنِس: «هُناكَ شَيْءٌ لَمْ أُخْبِرْكَ بِهِ بَعْدُ. في اللَّيْلَةِ الّتي قَضَيْتُها مَعَ العَزيزَةِ دورا وهِيَ تُحْتَضَرُ، وَجَّهَتْ إِلَيَّ تَوْصِيَتَها الأَخيرَةَ قائِلَةً إِنَّني قادِرَةٌ وَحْدي على مَلْءِ الفَراغِ الّذي كانَتْ سَتَتْرُكُهُ في قَلْبِكَ. وها نَحْنُ الآنَ قَدْ حَقَّقْنا رَغْبَتَها الأَخيرَةَ.»

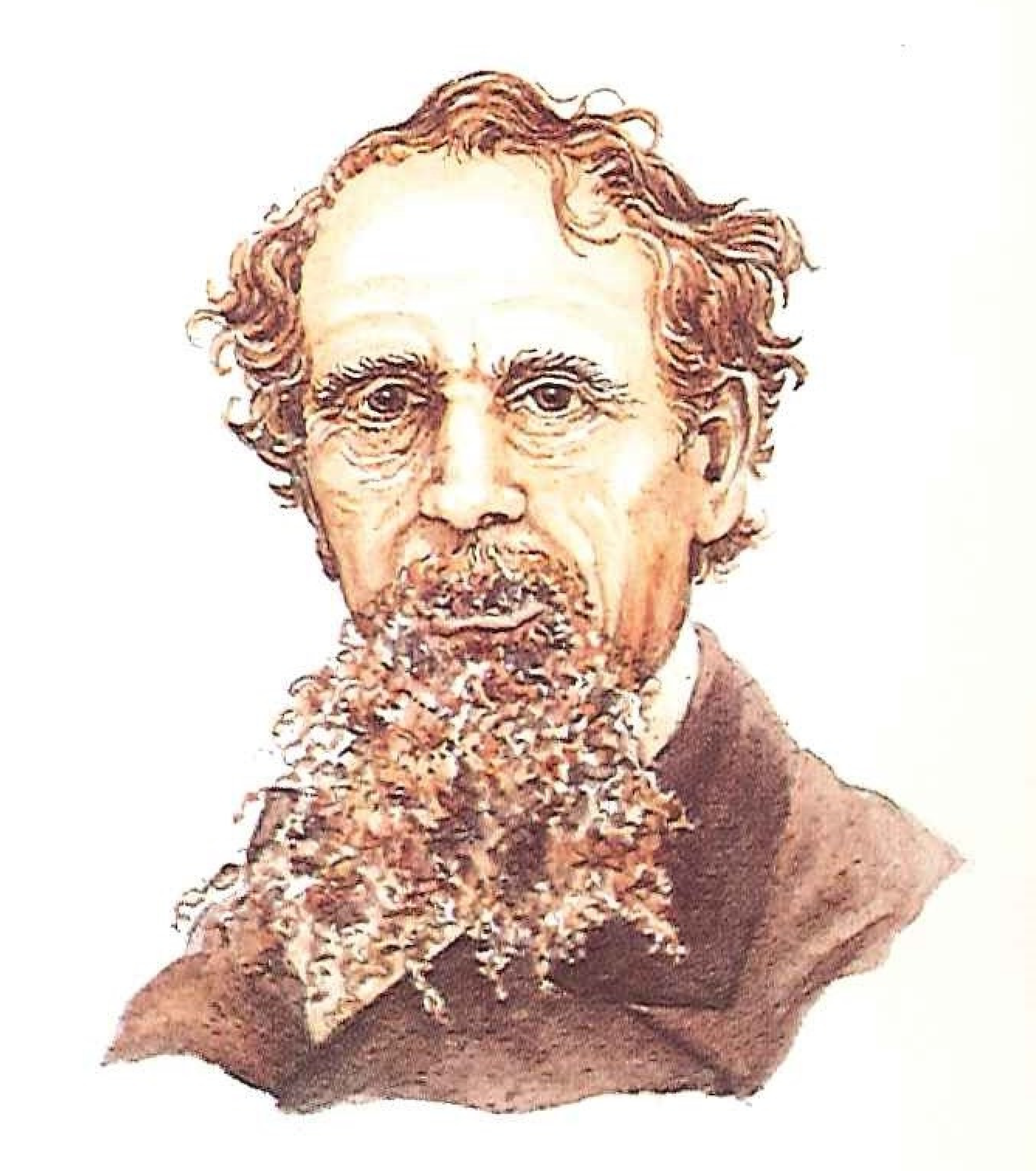
وبَعْدَ أَنْ تَفَوَّهَتْ أَغْنِس بِهٰذا الكَلامِ أَلْقَتْ رَأْسَها على صَدْري وبَكَتْ، وبَكَيْتُ مَعَها، فَاخْتَلَطَتْ دُموعُ الحُزْنِ بِدُموعِ الفَرَحِ، لِأَنَّنا كُنّا سَنَبْقى مَعًا مَدى الحَياةِ. فَقَدْ تَزَوَّجْنا أَخيرًا وكُنّا أَسْعَدَ زَوْجَيْنِ على وَجْهِ الأَرْضِ.

كلمة أخيرة

إنَّ القِصَّةَ الّتي رَوَيْتُها هِيَ سِجِلٌّ صادِقٌ لِأَفْراحِ حَياتي وأَحْزانِها. وقَدْ تُوِّجَتْ حَياتي بِالمَكانَةِ المَرْموقَةِ الّتي نِلْتُها في مَيْدانِ الكِتابَةِ. والآنَ، بَعْدَ مُرورِ عَشْرِ سَنَواتٍ أَرى عالَمي الصَّغيرَ يَزْدادُ إِشْراقًا وتَفَتُّحًا: فَقَدْ أَسَّسْتُ، مَعَ زَوْجَتي الحَبيبَةِ، عائِلَةً رائِعَةً. ومِنْ بَيْنِ أَوْلادِنا طِفْلَتُنا الصَّغيرَةُ بِتْسي تروتوود كوبرفيلد الّتي تَكادُ تَكونُ صورَةً مُصَغَّرَةً عَنِ العَمَّةِ بِتْسي بِالذّاتِ. وقَدْ تَقَبَّلَتْ عَمَّتي ومُرَبِّيَتي الوَفِيَّةُ بيغوتي تَقَدُّمَهُما في السِّنِّ بِرَزانَةٍ وطيبَةِ خاطِرٍ، فَهُما تَلْمُسانِ امْتِدادًا لِشَبابِهِما في الأَوْلادِ الّذينَ يُحيطونَ بِهِما أَثْناءَ زِياراتِنا لَهُما. وأَصْبَحَ ترادلز رَجُلَ قانونٍ ناجِحًا، وهُوَ سَعيدٌ في زَواجِهِ، وقَدْ رُزِقَ أَطْفالاً يَزْخَرونَ نَشاطًا وحَيَوِيَّةً. أَمّا أوريّا هيب فَقَدْ تَوارى عَنِ الأَنْظارِ، بَعْدَ فَضيحَتِهِ الكُبْرى ثُمَّ حُكِمَ عَلَيْهِ بِالسِّجْنِ إِثْرَ اخْتِلاسِهِ مَبْلَغًا طائِلاً مِنْ بَنْكِ إِنكلترا.

وعَلى صَعيدٍ آخَرَ، كانَتْ تَبْلُغُنا مِنْ أستراليا، مِنْ حينٍ لِآخَرَ، رَسائِلُ تَنْقُلُ إِلَيْنا أَخْبارَ أَصْدِقائِنا المُقيمينَ في أَقاصي الأَرْضِ. فَقَدْ حالَفَ الحَظُّ السَّيِّدَ ميكوبر أَخيرًا، فَازْدَهَرَتْ أَعْمالُهُ التِّجارِيَّةُ وتَحَسَّنَتْ أَحْوالُهُ المادِّيَّةُ. أَمّا العَمُّ بيغوتي فَلَمْ يَفْقِدْ نَشاطَهُ بَلْ أَصْبَحَ رَجُلاً سَعيدًا وذا شَأْنٍ. وطَرَحَتْ إِميلي أَحْزانَها جانِبًا، إِلّا أَنَّها رَفَضَتْ كُلَّ عُروضِ طالِبي الزَّواجِ، لِأَنَّها حَقَّقَتْ سَعادَتَها بِرِعايَةِ المَرْضى والاهْتِمامِ بِالأَطْفالِ في مِنْطَقَتِها. غَيْرَ أَنّي واثِقٌ مِنْ أَنَّها ما زالَتْ تَتوقُ إِلى تِلْكَ الأَيّامِ المُشْمِسَةِ في طُفولَتِنا البَريئَةِ السَّعيدَةِ حينَما كُنّا نَلْعَبُ مَعًا عَلى رِمالِ يارْموث قُرْبَ بَيْتِ العَمِّ بيغوتي.





تشارلز ديكنز (١٨١٢ – ١٨٧٠)

وُلِدَ تشارلز ديكنز بِالقُرْبِ مِنْ مَدينَةِ «بورتسماوث» في جَنوبِ إِنكلترا، وعِنْدَما بَلَغَ عامَهُ الثّاني انْتَقَلَتْ أُسْرَتُهُ إِلى لَنْدن حَيْثُ واصَلَ والِدُهُ عَمَلَهُ كَكاتِبِ حِساباتٍ في القِطاعِ البَحْرِيِّ. وقَدْ واجَهَتِ الأُسْرَةُ هُناكَ ظُروفًا عَصيبَةً لِسَجْنِ والِدِهِ بِسَبَبِ الدُّيونِ. وتَوَقَّفَ الطِّفْلُ عَنْ مُواصَلَةِ تَعَلُّمِهِ، واضْطُرَّ لِلْعَمَلِ بِمُسْتَوْدَعٍ لِدِهانِ الأَحْذِيَةِ لِيُنْقِذَ عائِلَتَهُ مِنَ المَوْتِ جوعًا. وعِنْدَما بَلَغَ تشارلز الصَّغيرُ سِنَّ الثّانِيَةَ عَشْرَةَ، أُطْلِقَ سَراحُ والِدِهِ مِنَ السِّجْنِ، واسْتَطاعَ تشارلز أَنْ يَتَلَقّى قَدْرًا مِنَ التَّعْليمِ خِلالَ العامَيْنِ التّالِيَيْنِ. كانَ ذَكِيًّا سَريعَ التَّحْصيلِ، لكِنَّهُ هَجَرَ المَدْرَسَةَ لِيَلْتَحِقَ بِوَظيفَةِ كاتِبٍ بِمَكْتَبِ مُحامٍ، حَيْثُ اكْتَسَبَ خِبْرَةً عامَّةً بِأَساليبِ المُحاماةِ وشُؤونِ التَّشْريعِ الإنكليزِيِّ، ساعَدَتْهُ في كَثيرٍ مِنْ رِواياتِهِ. خِلالَ تِلْكَ الفَتْرَةِ كانَ ديكنز يَعْمَلُ بِاجْتِهادٍ حَتّى اسْتَطاعَ أَنْ يُصْبِحَ مُحَرِّرًا بَرْلَمانِيًّا، وهِيَ الوَظيفَةُ الّتي احْتَرَفَها في وَقْتٍ وَجيزٍ، والّتي سَمَحَتْ لَهُ أَنْ يَجوبَ البِلادَ شَمالاً وجَنوبًا مُتابِعًا لِخُطَبِ كِبارِ السِّياسِيّينَ.

كُلُّ هٰذِهِ الخِبْراتِ المُتَنَوِّعَةِ، بِالإِضافَةِ إِلى ما كانَ يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ دِقَّةِ المُلاحَظَةِ، مَكَّنَتْ ديكنز فيما بَعْدُ مِنْ وَصْفِ النّاسِ والأَماكِنِ بِواقِعِيَّةٍ شَديدَةٍ. وفي عام ١٨٣٦،

عِنْدَما بَلَغَ الرّابِعَةَ والعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ، نَشَرَ الجُزْءَ الأَوَّلَ مِنْ «مُذَكّرات بيكويك» الّتي حَقَّقَتْ نَجاحًا سَريعًا. ومُذْ ذاكَ كَرَّسَ حَياتَهُ لِكِتابَةِ أعْمالِهِ الرِّوائِيَّةِ الشَّهيرَةِ. وخِلالَ سِتِّ السَّنواتِ التّالِيَةِ كَتَبَ رِوايَةَ «أوليڤر تويست» ورِوايَةَ «نيكولاس نيكلباي» ورِوايَةَ «مُتْحَف العَجائِب» و«برنابي رودج». وَتَوالَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ باقي أعْمالِهِ «تَرْنيمَة عيد الميلاد» و«ديڤيد كوپرفيلد» و«بليك هاوس» (البَيْت المُوْحِش) و«أوْقات عَصيبَة» و«دوريت الصَّغيرَة». وفي عام ١٨٥٩ أَتَمَّ رِواياتِهِ «قِصَّة مَدينَتَيْن» و«الآمال العُظمى» و«صديقنا المُشْتَرَك»، وماتَ عامَ ١٨٧٠.

تَمْتازُ رواياتُ تشارلْز ديكنْز، فَضْلًا عَنْ كَوْنِها مُمْتِعَةً إلى حَدٍّ كَبيرٍ، بِأَنَّها ذاتُ أبْعادٍ اجْتِماعيَّةٍ وَأَخْلاقِيَّةٍ؛ فَقَدْ كانَ مُصْلِحًا اجْتِماعِيًّا مُحِبًّا لِخَيْرِ البَشَرِيَّةِ، وفَوْقَ كُلِّ ذٰلِكَ فَقَدْ كَشَفَ النِّقابَ عَنْ مَساوِئِ الفَقْرِ وقَسْوَةِ قانونِ العقوبات ونُظُمِ السِّجْنِ وعَدَمِ رِعايَةِ الأطْفالِ وعَجْزِ نِظامِ التَّعْليمِ وعَدَمِ كَفاءَتِهِ. واسْتَطاعَ بِذٰلِكَ أَنْ يُثيرَ قَلَقَ الأُمَّةِ، وأدَّتْ جُهودُهُ إلى الكَثيرِ مِنَ التَّحَسُّنِ في حَياةِ الكَثْرَةِ مِنَ الفُقَراءِ والمُعْوِزينَ.

